العُرْسُ الأَبْيَضُ

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الثانية
٢٠٢٢م - ١٤٤٣ هـ

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع

غزة - فلسطين - شارع الوحدة ت: 97282825688+
شارع الثلاثيني ت: 97282824152+
جوال: 9720599732212+
Samir@mansour.ps
/samirmansourbookshop

جابر، هيثم
العُرسُ الأبيَضُ / هيثم جابر - غزة: مكتبة سمير منصور، 2022
(176) ص؛ مقاس 14 × 20
تم إعداد بيانات الفهرسة في مكتبة وزارة الثقافة العامة - فلسطين

لا يجوز نقل أو نسخ أي شيء من مادة الكتاب
إلا بعد الحصول على إذن خطي من الناشر

رقم الإيداع: 1579 / 2021 الترقيم الدولي: 978 - 9950 - 04 - 341 - 1

لوحة الغلاف: الفنانة إلهام المغيث - نزال- باريس

هيثم جابر

العُرْسُ الأَبْيَضُ

روايــة

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع

التقديم

حولَ قصصِ العرسِ الأبيَض

في المجموعةِ القصَصيةِ (العرس الأبيض)؛ يدخلُ الكاتبُ هيثم جابر معمعانَ المواجهةِ مع الآخَر، الذي يعملُ على نفيِ الفلسطِيني عن أرضِه ومواريثِه العميقةِ، والنيلِ من مُقوِّماتِ صمودِهِ، وتغريبِهِ عن الحياةِ الإنسانِيةِ، وذلكَ من خلال لوحاتٍ قصصيةٍ تُعيدُ إنتاجَ أحداثٍ وقعَت، أَو مُحتَملَة الحدوثِ في مجتمعٍ ضاربِ الجذورِ في أرضِهِ على امتدادِ تاريخِه العميقِ، وهي تُمثِّلُ أجندَةً أدبيةً موازيةً، تعكسُ طبيعةَ الصراعِ اليَومي مع الغازِي المُحتَلِّ، وَتلعبُ دورًا مُهِمًّا في الوجدانِ الجمْعِي، وتبقَى؛ لِكَون الأدبِ الإنسانِي أكثرَ مصداقيةً؛ لأنه يرصدُ الإنسانَ في حالاتِ زهوِهِ وانكسارِه دون رتوشٍ، ما يجعلُه أكثرَ مصداقيةً وتأثيرًا في الوجدانِ الجَمعيِّ، ولأنهُ يعكسُ سلوكَ الأفرادِ والجماعاتِ اتجاهَ الأحداثِ.

تعتمدُ أغلبُ قصصِ المجموعةِ على الراوي العليمِ، فهو يخبرُ بالأحداثِ نيابةً عن الأبطالِ، في محاولةٍ للتسللِ إلى مياهِهم العميقةِ،

فيَعكِس مظاهرَ الحياةِ المُحيطةِ، ويوجِّهُ مساراتِ شخوصِه نحو أهدافِهم كما يريدُ لها أن تكونَ، مع التركيزِ أكثرَ على الأبطالِ الذين تقاطعَتْ وتصادمَت حياتُهم مع نكبة 1948، ولجوء عددٍ كبيرٍ من الفلسطينيين إِلَى دولِ الجوارِ والمنافي البعيدةِ، حاملين معهم ذاكرةَ الوطنِ، وحلمَ العودةِ على امتدادِ الدراما الفلسطينيةِ السوداء بعد الحربِ العربيةِ الإسرائيليةِ في العام 1967، ووقوعِ فلسطين كاملةً تحت قبضةِ الاحتلال، ونشوء حركاتِ المقاومةِ المسلحةِ، حتى عودةِ السلطةِ الفلسطينيةِ إلى قطاعِ غزة، وأجزاء من الضفةِ الغَربيةِ بَعدَ اتفاقيةِ أوسلو، وما زالَت.

في قصةِ الهروبِ من الموتِ إلى الموتِ؛ يواكبُ أبو طه رحلةَ الشتاتِ متنقلًا من لِبنان إلى سُوريا، والعِراق، ثم العَودَة إلى لبنان، حيثُ يفقدُ في كلِّ محطةٍ عددًا من إخوانِه وأولادِه وأحفادِه، حتى غَرق ابْنه وعائلَته في مياهِ الهروبِ إلى أوروبا، راكِبًا البحرَ من تُركيا إلى أوروبا، وكأنه يسجِّلُ التيهَ الفلسطيني، تَشتَعلُ فيه جذوةُ الحلمِ بالعودةِ إلى حَيفا وإنْ طالَ المَدى.

وفي قصةِ الموتِ الأحمر في زنازينِ الاحتلالِ؛ يُعطي أبو خديجة المُتسللُ من حيِّ الزعتر بطانيتَه للأسيرِ الشابِّ؛ حتى يصمدَ، ويَقضِي ميتًا من البردِ.

وتُفردُ المجموعةُ مساحةً للمعتقلين المُقاوِمين، الذينَ حَملوا

الوطنَ داخلَ المُعتقلاتِ، وسَجَّلوا وقائعَ حالاتِ نضالٍ يربطُ الماضي بالحاضرِ، وتوارَثوا الثورةَ جيلًا بعد جيلٍ، ففي قصة طوقِ الكرامةِ؛ تُقدِّمُ الزوجةُ مصاغَها للزوجِ؛ لشراء البندقيةِ، فيقضي شَهيدًا، ويحتَفظ رفيقُه في الثورةِ بالبندقِيةِ، ويعيدُها لابنِه؛ حتى يواصلَ المشوارَ، وفي قصةِ عندما تبكي الجبالُ؛ يرصدُ الكاتبُ دمعةَ القائدِ الأسيرِ الصامد بعد الزيارةِ، مما جعلَ الأَسرى يظُنون حدوثَ أمرٍ جللٍ يصومُ عليه القائدُ، ليكتَشفوا أن ابنتَه التي وُلِدَت في غيابِه كبرَت وتزوجَت وأنجبَتْ بنتًا.

وفي المجموعةِ قصصٌ ترصدُ حالاتٍ في سلوكِ الشخصياتِ عندما يُواجهونَ مفارقاتٍ قد لا تبدو في دائرةِ اهتمامِهم، ولكن عند الصدامِ؛ تثيرُ عندَهم الثورةَ على بؤسِ الحالِ، ففي قصة العرس الأبيض؛ يقومُ خالد بتجهيزِ بيتِ الزوجيةِ بما يليقُ بحبيبتِه، فيتَّجِه إلى القدس؛ لشراء ما يلزمُ، فيصادرُ الجنودُ عند الحاجزِ بطاقتَه، ويرفضونَ إرجاعَها، ويُمعِنون في إذلالِه، ويقذفونَهُ بالسبابِ ويَقدَحونَ في شرفِ أُمِّه، فيستَشِيط غَضبًا، ويشتري سِكينَتين، ويهاجمُ الجنديَّ الذي صادرَ هويتَه، فتُطلِق النارَ عَليهِ دَوريةُ جيشٍ هرعت إلى المكانِ، وتعتقلُه جريحًا، وفي قصةِ الشاب سامي، الذي وقعَ في غرام مجندةٍ من أصلٍ روسِيٍّ سهّلَت مرورَهُ عبْرَ الحاجزِ، وفي يومٍ؛ رافقَته عند الحاجزِ، لكنها عادَت إثرَ مكالمةٍ من أُمها التي نُقِلَت

إلى المُستشفى، فانفردَ به الجنودُ وأوسعوه ضربًا وتَكسيرًا، وألقَوا به على الطرفِ الآخر المؤدي إلى المخيمِ الذي يسكنُه، وعندما تماثَلَ للشفاءِ اتصَل بها، وأخبرَها أن الحبَّ مُحرمٌ بينهما طالما البندقيةُ على كتفِها، وقفلَ راجِعًا إلى المخيمِ يبحثُ عن رجالِ المقاومة.

وهناك قصصٌ تقفُ عند المفارَقةِ الصادِمة، مثل توجّس الأهل من الزواجِ بالأسيرات كما في قصةِ ذاكرَة جرح، أو السخريَة السَّوداء من وعدِ بلفور كما في قصةِ حَقّ تاريخي، أو توظيف الصدفَةِ كما في قصةِ الحبيبِ المنتظَر.

وبعد:

فإنَّ فنَّ القصةِ القصيرة لا يُسلمُ قيادَهُ بسهولةٍ، والحكايةُ على أهميتِها؛ لا تكفي لتشكيلِ معمارٍ قصصيٍّ منافسٍ، كما أنها ليسَت روايةً مختزلةً كما يعُدها بعضُهم؛ لأنها تتمحورُ حولَ فكرةٍ يريدُ الكاتبُ توصيلَها للقراءِ، مستعينًا بالتقنياتِ المناسبةِ للمعمارِ القصصيِّ، الذي يشتبكُ مع القُراءِ على اختلافِ وعيِهم ومستوياتِ تفكيرِهم، بما يُحقّقُ المتعةَ، ويضيفُ إلى المعرفةِ، وأعتقدُ أنّ كاتِبَنا يملكُ ذلكَ.

غريب عسقلاني

المواجَهةُ الأُولى مع الموتِ

لم يكُن في ذلكَ الوقتِ يتجاوزُ العاشرةَ من عمرِه، ولا يعرفُ مَعنى الحياةِ إلا من خلالِ لونِ طفولتِهِ، التي لم تُغادرْ أزقةَ أحلامِهِ الصغيرة وشَوارِعَها، بدا ذلكَ اليومُ مميزًا عن بقيةِ الأَيامِ، حيثُ كانَ مفعمًا بالحَيويةِ والحياةِ، كانَت شَمسُ الصباحِ قد ألقَت بخيوطِها الذهَبيةِ الجميلةِ فوقَ ربيعِ ساحَةِ المدرسةِ، كانَ يَعدو كأنهُ طائرٌ مُهاجرٌ، يُحلِّقُ في فَضاءِ فَرحِ الطفولَةِ ولهوِ الأحلامِ.

انتهَت للتوِّ الاستراحةُ بعدَ الدروسِ الثلاثِ الأُوَل، ها هُم أقرانُه يُسارِعونَ للعودةِ إلى فصولِهم الدراسيَّةِ، بعدَ أَن دَق جرَسُ براءَتِهم مُعلِنًا استِئنافَ ما تَبقّى من اليومِ الدراسيِّ، كانَ في طريقِهِ إلى الصفِّ الرابعِ عِندَما التقى إِحدى طالبَاتِ فَصلِه، التي تُقارِبُهُ في العمرِ، مازَحَتهُ بعفَويتِها المعهودَةِ، وشَاكَسَتهُ بشقاوَتِهَا البريئَة، لَم تكُن تدركُ أَي معنى لِكلامِها عِندَما صفَعتهُ بذلكَ الخبرِ، الذي وقَعَ عليهِ كالصاعقَةِ، حيثُ أَخبرَتهُ وثَغرُها يمطرُ ضحكاتٍ بريئةً:

- ألَم تعلمْ أَنَّ جدتَكَ ماتَتْ؟!

تَسَمرَ في مكانِهِ من هولِ الخبرِ، لم يُصدقْ ما سمِعَ، فسَألها بشكلٍ

تلقائي ودونَ تفكيرٍ:

– مَن أخبرَكِ بذَلكَ؟! أَنتِ تكذبين! جدتي لَا تَموتُ!

– أَنا لا أكذبُ، أَخبرتني أُمي أَن جدتَكَ ماتَتْ، وقَد أحضَروها من المشفى لِدَفنِها هناكَ في المقبَرَةِ.

وأشارَت بإصبَعِها إلى المقبرة. كانَت تجيبُ بعفويةٍ لا مُباليَة، كَأَنها تخبرُهُ عن رحلةٍ مدرَسيةٍ، أَو عن فُستانٍ جديدٍ اشتَراهُ لها والدُها.

هوَ لم يكُن يُدركُ معنَى الموتِ أو الحياةِ، لكنهُ أَدرَكَ أن هناكَ خَطبًا ما أَصابَ جدتَهُ التي يُحبها كثيرًا، ولا يَتخيلُ أَنهُ يستطيعُ فراقَها، حيثُ كانَت ملجَأهُ الوحيد، حينَما كانَ يُشاكسُ والدتَهُ، فتهددهُ بالعِقابِ، كانَ يزورُها يَوميًّا، لا يُفارقُها إلا وقتَ النوم.

لم يكُن يعلمُ أنهُ لَن يراها مُجددًا عندَما ذَهبَ لزيارَتِها في ذلِكَ الصباحِ، حيثُ لم يجِدها، أخبروهُ أنها تَعبَت، وتم نقلُها إلى المَشفى، لم يُعلق، لم يستنفرْ، أو يستَوضِح، عادَ أَدراجَهُ إلى البيتِ، كانَ على يقينٍ أنها سَوفَ تعودُ؛ لِأَن المشفى غير بعيدٍ، يَذهبون إليهِ بالسيارةِ، ثم يَعودونَ منهُ بالسيارَةِ.

إِذن لا شيءَ يدعو للقلقِ، كل الناسِ تذهبُ إِلى المستشفى ثم تَعودُ، لكنها عادت ميتةً، جدتي ماتت؟! أَخَذَ يبكي ويصرخُ:

– غير صحيحٍ! أنا جدَّتي لا تموت، أنتِ تكذِبين!

لَم تَستَطعْ قدَماهُ حملَه، جلسَ على الأرضِ، زادَ بكاؤُهُ، تمرَّغَ

بالترابِ، حاولَت إِحدى المُعلماتِ تهدئتَه دونَ جدوى، نَظرَ باتجاهِ المقبرةِ، فرَأى تجمهرًا لِأُناسٍ كُثر، نظرَ حولَه؛ لا أحدَ سوى الطفلةِ والمُعلمةِ، أَرادَ أن يسأَلَ:

– ماذا يعني الموتُ؟ أينَ يذهبُ مَن يموتُ؟! أَلَن يعودَ؟! ألن نراهُ ثانيةً؟!

وقفَ فجأَةً، ثم سارَ باتجاهِ منزلِ جدتِه، فوجدَ الناسَ يبكونَ هناكَ، نساء تُولوِلُ، الدموعُ سيدةُ الموقفِ، بحثَ عن والدَتِه بينَ الجموعِ حتى وجَدَها، جلسَ إِلى جانبِها، وسَأَلها:

– أمي؛ هل ماتَت جدتي حقًّا؟!

– نعم يا بُني.

– أيعني ذلكَ أَنني لَن أراها بعدَ اليومِ؟

– لا يا حبيبي.

– أين ذهَبَتْ؟ أريدُ أن أَراهَا، أنا لا يَعنيني إِن ماتَت أَم لَم تمُت، أريدُ أَن أجلسَ في حضنِ جدتي.

أخذت والدتُه تُهدئ من روعِهِ والدموعُ تخضبُ خديها، كانَ الجميعُ في حالةِ حزنٍ، حيثُ كانَ للموتِ رهبته في تلكَ الأَيام، تجدُ القريةَ كُلها تحزنُ، تُشاركُ أَهلَ المُصابِ حزنَها، فيحظر تشغيلُ مِذياع أو تلفاز بصوتٍ مرتفعٍ، ويحظرُ إِظهار أي فرحٍ من أَي نوعٍ، حتى يمضي أربَعونَ يومًا على الفقيدِ، فيتم تَأجيلُ حفلاتِ الخطوبةِ والزواجِ

والأعراسِ إلى ما بعد الأربعين، يومها كانَ الناسُ جسدًا واحِدًا.

يذكرُ أنه لم يبدلْ ملابِسَه لأَسابيعَ حدادًا على جدتِه، لم يسمع مذياعًا أو يشاهد تلفازًا سنةً كاملةً؛ إكرامًا لذكرى جدته.

لكن سُنَّةَ الكونِ تَمضي، ولا تتوقفُ عجلةُ الحياةِ، كانت صدمةُ الموتِ الأُولى مبكرَةً جدًّا بالنسبةِ لعمرِهِ وعقلِه، فيما بعد.. عرفَ وجوهًا كثيرةً للموتِ، وألوانًا كثيرةً، ومعانيَ كثيرةً لذلِكَ الموتِ، أصبحَ يدركُ أن فلسفةَ الموتِ والحياةِ تختلفُ من شخصٍ لآخَر، فهناك أُناسٌ ميتونَ وهم أَحياء، يَأكلونَ ويَشربونَ، يذهَبونَ ويَأتونَ، ولا يشعرُ بِهِم أحدٌ، كذَلكَ لا يشعرونَ بأحدٍ، يعيشونَ على قارعةِ التاريخِ وهامشِ الحَياةِ، لا وزنَ ولا قيمةَ لهُم، وهُناك أيضًا أمواتٌ أحياء، يعيشونَ بيننا وهم تحتَ الثرى، نشعرُ بهم، نلمسُ وجودَهُم في عقولِنا وأفكارِنا، يؤثرونَ بنا، ويصنَعونَ الثوراتِ، ويعدونَ انقلاباتٍ عسكريةً واجتماعيةً وسياسيةً وثوريةً، وقد مضى على موتِهم سنواتٌ طوالٌ، بل ربما مئاتُ السنينَ.

أصبحَ يدرِكُ أَن الحدَّ الفاصلَ بينَ الموتِ والحياةِ أقلُّ من سمكِ شجرةٍ، أو ربما حرف أَو نقطَة تغيِّرُ معنى النص ومعنى الحياة، ومعنى المماتِ، حرفٌ واحدٌ يفصلُ الحبَّ عن الحربِ، ولحظةٌ واحدةٌ تفصلُ الحياةَ عن الموتِ.

كبرَ وكبرَتْ معهُ الحياةُ، أصبحَ يدركُ أَن كلَّ شيءٍ يدورُ حولَهُ

يَستحِق الحياةَ، وكل شيء يدورُ حولَهُ كذلك يستحق أَن تموتَ من أَجلِهِ، إنها مفارقةٌ معقدةٌ، تمامًا كالشعرةِ التي تفصلُ بينَ الموتِ والحياةِ.

هناكَ أُناسٌ يموتونَ من أَجلِ أَن يحيوا إِلى الأبدِ، يُقدمونَ حياتَهم ليحيا الآخَرونَ، إذن؛ فكُل شيءٍ حولَنا يَستحِق الحياةَ؛ الأحبة، الوطن، وكذلك الأَرض، كلهم يستَحقونَ أَن نموتَ من أجلِهم.

أَدرَك أن الإنسانَ قَد يموتُ مَرتين أَو مراتٍ عديدة، مرةً من أجلِ الإنسانِ ووجدانِه، ومرةً من أجلِ الوطنِ، ومرةً أُخرى من أجلِ حبٍّ تعثرت به قدماكَ علَى قارعةِ الحياةِ، إذَن؛ فإننا عندَما نعشقُ نموتُ، وعندما نغضبُ نموتُ.

منذُ ذلكَ الحينِ؛ لم يمرّ يومٌ دونَ أَن يذهبَ لزيارةِ قبرِ جدتِه، ويقرَأ لها الفاتِحةَ؛ تمامًا كما اعتادَ أَن يزورَها وهيَ على قيدِ الحياةِ.

قررَ بعدَ ذلكَ أَن يحيا إِلى الأبدِ، وألا يموت أَبدًا. أَخرجَ ورقةً من درجِ مكتبِه، وكتبَ وصيةً بأن يكونَ قبرُه محاذِيًا لقبرِ جدتِه.

القَميص الأَزرق

مرَّ زمنٌ طويلٌ لم يُكحلْ عَينيهِ بطلَّتِها البَهيةِ، لقَد كانَت الصدمةُ كبيرَةً جدًّا حينما اصطدَمَ بِظلها الجميلِ في أروقَةِ الجامعَةِ.

لم يَكن يعلمُ أن الزمنَ كعواملِ التعريةِ على الجسدِ، لم يستطع أن يُقارنَ بينَ صدمتِه الأولى بأنوثَتها الصاخِبةِ وبينَ شبحِ العقدِ الخامسِ من عمرِها.

مرَّ زمنٌ طويلٌ قطفَ من ثمارِ أَعمارِنا الكثيرَ، لكنها عرفَتهُ على الرغمِ من تلكَ السنِين، فما كانَ منهَا إلا أَن رسَمَتْ لهُ ابتِسامَتَها السَّاحرةَ والشَّهيةَ، فهي لا زالَت تذكرُ مُراهقةَ عَينَيهِ وهي تُداعبُ مفاتنَ أُنوثَتِها على الرغمِ من طفولةِ شهوتِه.

لم تكُن تصدقُ أَن طفلَ الصَّفِّ الثالثِ الابتدائيِّ بلغَ فتنةَ النساءِ قبلَ أوانِهِ، تتذَكرُ جيدًا عندما عاقَبتهُ بالوقوفِ أَمامَ غرفَةِ مديرَةِ المدرَسَةِ، وألهَبَت يدَيهِ بِعصاتِها الحادةِ (لقلةِ أَدبه)، وعلى الرغمِ من ذلكَ لَم يرتدع، ظلَّ يرقبُ حركاتِ مفاتِنِها الثائرَة على مدارِ ساعاتِ الدوامِ الرسمِي.

بعد انتِهاءِ الدرسِ يجلسُ إلى جانبِ الشباكِ المُقابل لمَكتبِها،

وفي أثناء الاستراحَةِ يَجلسُ أَمام بابِ مكتبِهَا، يرقبُها في أثناء ذهابِها وإِيابِها، إنهُ حبُّ الطفولَةِ الأَولُ، فهو يَذكرُ حتى اللحظةِ عندما غادرَ المدرسَةَ ذلكَ المساءَ، برفقَةِ صديقِهِ وجاره في الحارةِ، أخبرَهُ في أثناء الطريقِ أنهُ يُحب معلمةَ الحسابِ، وعندَما يكبرُ سوفَ يتزوجُها، وسوفَ يطلبُ منها ثلاثَ قبلاتٍ؛ قبلة على خدها الأَيمَن، وقُبلة على خدها الأَيسَر، وقبلة من شَفَتَيها، وأنه سَوفَ يشتري لها عشرَة قمصان زرق، تمامًا كالقَميصِ الجميلِ الذي يُحب أن يراها بِه.

في اليومِ التالي؛ وشى بهِ صديقُه، وفضَحَ أحلامَهُ وخيالاتِه الجَميلَةَ البريئةَ، أمامَ دهشتِها وابتِسامتِها السَّمراء، وما إن وصلَ إلى المدرسَةِ؛ حتى كانت تَنتظرُهُ أمامَ غرفَةِ المديرةِ بِعصاتِها المُعتادةِ، لكِن لم تكُن وحدها هذِهِ المَرة، بل كانَت برفقةِ معلمةِ التربيةِ الإِسلامِيةِ التي كانت تستعد لإلهابِ يَديهِ؛ نظرًا لتَماديهِ في قلةِ أَدبِهِ، كعادتِهِ أنكرَ التهمَ المنسوبَةَ إليهِ، وحلفَ عَشرَ أيمانٍ بالله أنهُ لم يذكُرْ معلمتَه بسوءٍ، ولم يقل شيئًا مما نقلَهُ صديقُهُ لهُن، لم تشفع لَهُ أَيمانُهُ ولا إنكارُه، كانت العَصا تَأكلُ من يَديهِ، لكنهُ لم يَأبهْ لهُن.

عادَ إلى فصلهِ كالعادة، جلسَ في الدرجِ المُقابلِ لسحرِ حُضورِها، أَخَذ يَتأَملُها مِن أخمص قدَميها إلى أَعلى قمةِ تضاريسِها الفاتنةِ، كانَ شعرُها الأَسود الحَريري يَنسابُ على جبينِ شمسِها عند كل استِدارةٍ من السبورَةِ إلى الطلبةِ وهي تشيرُ بكَفيها يمينًا ويسارًا في أَثناء

شرحِها للدرسِ.

كانت كَفاها أشدَّ بياضًا من طباشورة السبورة، أما قوامها الفارعُ فكانَ يزيدُ قميصَها السماوي رقةً ونعومةً، كأنها لوحةٌ فنيةٌ مرسومَةٌ بريشَةِ فنانٍ مبدعٍ، زادَ اللوحةَ جمالًا بنطالُ الجينز الذي امتَطى زرقةَ الأمواجِ الناعمةِ، وراحَ يبرزُ أَدقَّ التفاصيل في أَعمدةِ الرخامِ الياقوتِيةِ.

أقسَمَ يومَها أَن يحترفَ فَن الرسمِ لجمالِها؛ ليكونَ أولَ رسامٍ يُجسدُ عينَيها فوقَ الورقِ المَرمري، كذلكَ أقسَم أن يحترفَ فن النحتِ؛ ليكونَ أولَ مَن يشكلُ أنوثتَها في رُخامِ السحرِ والجمال، أقسَمَ أن يكونَ شاعرًا ليرسمَها بعطرِ الكلماتِ، راحت أحلامُه تسافرُ شرقًا وغربًا، تتجاوزُ الزمنَ وملامحَه القاسية، لم يقطَع حزنَه وحسرَتهُ إلا سؤالُها:

– ماذا تفعلُ هنا؟

– أنا طالبٌ أدرسُ هنا، لقد أوشكتُ على التخرجِ، أنا في السنةِ الدراسيةِ الرابعةِ.

أجابَ، ثم أردفَ إجابته بسؤالٍ:

– وأنتِ ماذا تَفعلينَ هنا؟

– أنا أُحَضِّرُ لرسالةِ الدكتوراة، وقد جئتُ إلى المكتبةِ كي أَستَعيرَ بعضَ المراجع.

– رائع! إذَن لا بد أَن أُساعدَكِ، سأرافِقُكِ، ودعيني أحمِلْ لكِ هذهِ الحقيبةَ، هذا اليوم أَنا حارسُكِ الشخصِي، وسَأعملُ عندكِ مُتطوعًا دونَ مقابلٍ.

قالَ مُداعبًا، ثم نظرَ إلى عينيها وأَضافَ:

– لولاكِ ما كنتُ هنا.

ابتسَمتْ، ولم تقلْ شيئًا، ثم سارَ الاثنانِ باتجاهِ المكتبةِ، سَألَها مرةً أُخرى:

– هل وصَلتكِ رسالَتي؟

– كانت أَجمـلَ رسالةٍ في حياتي أتلقاها مِن أروَع طلابِي المُشاكِسين.

ثم نظرَت إليه مبتسمةً، وأضافَت بدعابةٍ جميلَةٍ:

– (وقليل الأدب أيضًا).

أَخذَ يضحكُ بصوتٍ عالٍ ثم قالَ:

– ألا زلتِ تذكُرين؟

– وهل هذِهِ أيامٌ تُنسى؟! إنها أَجملُ أيام حَياتي على الرغمِ من قلةِ أَدبِكم!

قالَت مازحةً، ثم أردفت:

– لَم يذهَب تَعبي سُدى، كم أَنا سعيدَةٌ عندما أَلتَقي بطُلابي وقَد أصبحوا مُهندسين، وأطباء، وعلماء، وفنانين، أَشعرُ أنني أَنجبتُكم،

وربَّيتُكم، وكبَّرتكم، أشعرُ أنني أنجزتُ، ولم أندم أنني لَم أتزوجْ؛ لأن لي كثيرًا من الأَولادِ.

– أعتقدُ أَنني أشعرُ بالشعورِ ذاتِه، هذا اليوم من أسعد أَيام حياتي؛ لأنني رأيتكِ، وقابلتُ معلمةَ الطفولةِ وحُب الطفولةِ.

قالَها وهو يَضحكُ بصوتٍ عالٍ، فقالت:

– لا زلتَ قليلَ الأدب!

قالَت وهي تبتسمُ، ثم دخلا المكتبةَ، وصَعدا للطابقِ الثالثِ، حيثُ قسم المراجعِ العلميةِ الحديثةِ، واصلا حديثَهما مستفسرين عن أَحوالِ بعضِهما بعضًا، سألتهُ:

– ماذا كنتَ تفعلُ في مصر؟ عندما وصَلتني رسالتُك كانَ عليها طابعُ الجمهوريةِ العربية المصرية؟

– نعم؛ لقد كنتُ هناكَ، ذهبتُ للدراسةِ، وفي أثناء تلبيتي لدعوةٍ من السفارة الفلسطينية؛ وجدتُ هناكَ صحيفةً محليةً، أحضرَها السفيرُ من الوطنِ، فيها تهنئةٌ لكِ لحصولِك على شهادةِ الماجستير، فأثارت تلكَ التهنئةُ كلَّ ذكرياتِ الطفولةِ، عادَت صورةُ المعلمةِ الجميلَة إلى رأسي، ذات القميصِ الأزرق وبنطال الجينز، فقررتُ أَن أهنئَكِ أَنا أيضًا، وكتَبتُ لكِ تلكَ الرسالَةَ.

– إذن ما الذي حدَثَ؟ لماذا عدتَ لتدرسَ هُنا؟ أَلَم تُوفَّق في دراسَتِكَ هناك؟

– لا؛ كنتُ مُتفوقًا في دراستي، لَكِنني اعتقِلتُ في قضيةٍ سياسيةٍ، ثم أُفرِجَ عني، وتمَّ ترحيلي، فعدتُ.

– أَلم تتعلمْ بعد؟ أما زالَت عاداتُك السياسيةُ كما هي؟ أَلم تتغير؟!

– ولماذا أتغيَّرُ؟ هل تغيرَ في واقعِنا شيءٌ كي أتغير؟! المُحتل موجودٌ، الطغاةُ موجودون، المنتفِعونَ موجودون، كذَلكَ المرتزقة، لماذا أَتغيرُ إِذَن؟

سَكَتت، لم تُجب بِأَي كلمةٍ، لكنهُ واصَلَ مداعباته اللطيفةَ لها، تارةً يُذكرها بمشاكساتهِ لها، وتارةً يتغزلُ في ذكرى جمالِها، فَتنهَره كما كَانت تفعلُ في الماضِي، فيضْحَك، ثم تضحَكُ هي.

قالَ لها مرةً أُخرى:

– على الرغمِ من كل هذهِ السنين الطويلة، وهذهِ الملابس البَيضاء الجَميلَة، وهذا الحِجاب الملائكي؛ وعلى الرغمِ من أنكِ جميلةٌ في كل عمرٍ، وفي كل وقتٍ؛ إلا أن صورةَ المعلمةِ الشديدةِ القويةِ والفاتنةِ، ذات القميصِ الأزرقِ، لا تُغادرُ مُخَيلَتي.

بدَأ حديثُه يأخذُ طابعَ الجدِّ والحزنِ والصدقِ معًا.

– دعيني أَشكركِ معلمتي بشكلٍ جدي، شكرًا لكِ جدًّا، لقد كنتِ معلمةً رائعةً، لولاكِ ما كنتُ هنا، ولا وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه.

وضَعَت كَفها فوقَ كفهِ، ورَبتَت عليها، بينما كانَت هناكَ دمعَةٌ تَنسابُ من أعلى خدِّها، وتختفي في حجابِها الأَبيَض.

أعراسُ الدَّم

رفعَ الصغيرةَ فوقَ ساعديهِ، احتواها بينَ ذراعَيهِ، قبَّلَها، مَسَّدَ شَعرَها، عبثَت بشعرِهِ بكفيها الصغيرَتين دونَ أن تتوقفَ عن الضحكِ، طلبَت منهُ أَن يُحضرَ لها عروسةً وعلبَةَ شوكولاتَة، وعدَها أنهُ سيذهبُ إلى الدكانِ، ويحضرُ لها ما تُريدُ، لكن بَعدَ أَن يسمعَ نشرَةَ الأخبارِ، فرحَت كثيرًا، وركضَت نحوَ والدتِها إلى المطبخِ؛ لتخبرَها أَن والدَها سيَخرجُ لإحضارِ عروسَةٍ وشوكولاتة لها، صوتُ ضحكاتها تحلقُ في فضاءِ المكانِ، ترسمُ البهجةَ والفرحةَ فوقَ شفاهِ والدَيها، أشعلَ التلفازَ، وضبطَه على قناتِه الإخباريةِ المُفَضلةِ؛ أعراسُ الدم تتوالى، عشرة شُهداء في غَزة.. ثلاثةٌ في الخليل.. مثلُهم في بيت لحم.. أَربعة في نابلس.. آخر في جنين.. اثنان في القُدس.. في رام الله.. في مخيم.. في قلقيلية.. في طولكرم.. في وفي.. دماء فوقَ قارعةِ الأَغاني، الوطنُ برمتهِ يشتعلُ، إنهم يحاولونَ هتكَ سترِ المدينةِ المُقدسةِ الجميلة، والتسلل إلى خدرِها، يحاولونَ العبثَ بضَفائِرها، بخديها، بمَفاتِنها، أرادوا كشفَ عورَتها، رفضَتْ.. تمنعَتْ.. صرَخَتْ؛ حتى هبَّ عُشاقُها من شرقِ البلادِ وغربها؛ لنجدتِها،

والموتِ من أَجلِ عَينيها، جَحافلُ العُشاقِ تسيرُ بالآلافِ في شوارعِ الغَضبِ، يرحلُ كثيرٌ منهم إلى السماء، وكلما سَقَطَ قمرٌ؛ خرَجتْ في أَعقابهِ أقمارٌ أُخرى.

أخذَ يتنقلُ مِن قناةٍ إخباريةٍ إلى أُخرى، ومِن نشرةٍ إلى نشرةٍ، في زحمةِ الوجوهِ المتدافعةِ في أمواجِ القنواتِ الإخباريةِ؛ لاحظَ وجهًا ملائكيًّا يشبهُ وجهَ صغيرتِه، ارتعدَت أطرافُهُ، لم يحتَمل منظرَ الجَسَدِ الطفولي المُسَجى فوقَ النعشِ، افترَضَ أَن تكونَ هذهِ الصغيرةُ ابنته، غلَت الدماءُ في عروقِه، دخلَت فجأَةً غرفَةَ الجلوسِ، وجدتهُ لا زالَ جالسًا هناكَ، بدلَ القناةَ كي لا تَرى منظرَ الدماءِ، سَألتهُ عن العروسةِ والشوكولاتة، حضَنها مرةً أُخرى، قبَّلَها وخرَجَ، طلبَ منها أَن تبقى هادئةً، ولا تتعب والِدَتَها.

سارعَ إلَى الشارعِ ومنظرُ الأعراسِ والدماء لا تُفارقُ خلدَه، دماء الطفلةِ التي قتلوها قَبلَ قليلٍ تحرقُ أَحشاءَهُ، لا زالَت صورتُها فَوقَ النعشِ ماثلةً أَمامَ ناظِرَيهِ، في غمرةِ المآسي نسيَ نفسَهُ، ونسيَ الحاجةَ التي خرجَ من بيتِه من أَجلِها.

كان يتحدثُ مع نفسِه كمن فقد عقْلَهُ، يستغربُ هذا السكوتَ العالَمِي الفاضِحَ عن جرائِم المُحتَلين، لكنهُ سُرعانَ ما يتوقفُ عن لومِ الغرباءِ، وأبناء عروبتِهِ ودمهِ لا يُحركونَ ساكِنًا، فهلْ يعتبُ على الغرباء؟! يصلُ إلى نتيجةٍ واحدةٍ في نهايةِ المطافِ، (ما حكَّ جلدَكَ

غير ظفرك)، هكذا كانَت تقولُ جدتُه، لكن ماذا لمِثله أَن يفعلَ؟ سأَل نفسَه، ليتَه يمتَلكُ عصا سحريةً، يوقفُ بها دماءَ الطفولَةِ البريئَة التي يسفكُها القتلةُ دونَ رحمةٍ، لكن هل تكفي الأُمنياتُ؟ لا أعتقد ذلِك!

أسرعَ قليلًا في خطواتِهِ، كانَ قد عزمَ على أمرٍ ما، هاتَفهُ أحدُ أصدقائِهِ المقربين، ودعَاهُ إلى بيتِه، أخبرهُ أنه حضَّرَ كل مستَلزماتِ السهرةِ كالمعتاد؛ إبريق الشاي أصبحَ جاهزًا، أخبرهُ أنه ينتظرُهُ، وسيحضرُ بقيةُ الأصدقاء.

- لا تتأخر!

أَنهى صديقُه المحادَثَةَ. هكذا جرَت عادتُهم، إذ يسهَرون عند أَحدِ الأصدقاء؛ يَتسامرون ويلعبونَ، حتى إذا انتَصفَ الليلُ عادَ كُل واحدٍ منهم إلى فِراشِهِ بانتظارِ يومٍ آخَر من المُعاناةِ والأَلم.

انتظرَه أصدقاؤُه لكنه لم يَأتِ، كانَت وجهتُه وجهةً أُخرى إلى مكانٍ آخَر، في تلكَ اللحظاتِ؛ أَشعلَت قنابلُ الإضاءةِ السماءَ، صوتُ الرصاصِ يخرقُ سكونَ القريةِ، زوجتُهُ في المطبخِ تُنهي غسلَ بَعض الأَواني الزجَاجيةِ، أرادَت ترتيبَها، لكنها سَقطَت من يديها عندما سَمعَت صوتَ الرصاصِ، شعرَت بانقباضٍ في قلبِها.

تركَ أصدقاؤُه سهرَتهم وهرَعوا نحو مركزِ القريةِ، هاتفه صديقُه المقربُ مرةً أُخرى، لكن الهاتفَ لا يُجيبُ، يعيدُ الكرةَ فيَأْتيهِ صوتٌ من الطرفِ الآخرِ أن الهاتفَ الذي تحاولُ الاتصالَ به مغلقٌ حاليًّا،

تنطلقُ أصواتُ استغاثةٍ من مكبراتِ المسجدِ تطالبُ الأهالي التَّوجهَ نحو أطرافِ القرية، هناكَ شهيدٌ وجرحى.

هرعت القريةُ برمتِها إلى المكانِ، وجدوهُ مُسَجى على جانبِ الطريقِ، أَسلمَ الروحَ على أثرِ جرحِهِ، ونامَ.

في اليومِ التالي؛ كانَت الصحفُ تنشرُ صورَته، وتنعَى الشهيدَ الجديدَ، تجلسُ طفلتُه الصغيرةُ إلى جانبِ والدتِها، تحملُ الصحيفةَ، وتنظرُ إلى صورةِ والدها، تسمعُ الجميعَ يقولون:

- ابنة الشهيد.

تَسأل والدَتها:

- أُمي؛ ماذا يَعني أبي شهيد؟

- لقد ذَهَب إلى الجنةِ يا حبيبَتي.

تجيبُ والدتُها والدموعُ تنسابُ على خَديها.

- لَكِنهُ وعَدَني أَن يُحضرَ لي عروسة وعلبةَ شوكولاتة، أَلَن يعودَ ويفي بوعدِه؟!

سَأَلت الصغيرةُ مرةً أُخرى.

- لقد أَوفى بوعدِهِ يا حَبيبتي، لقد أوفى.

جلَسَت الصغيرةُ في حجرِ والدتِها، تنظرُ إلى وجوهِ النساءِ المُتشحاتِ بالسوادِ، بينما صوتُ جهازِ التسجيلِ يصدحُ بآياتٍ من الذكرِ الحكيم.

ذاكِرَة جرحٍ

حاوَلت فيحاءُ طرقَ بابِ جارَتِها (أم خالِد)، لَكنها تراجَعَت في اللحظةِ الأَخيرَةِ، فأَحجَمَت كَفّها الناعمَة عَن طَرقِ البابِ، وعادَت أدراجَها إِلى بيتِها دونَ أَن يشعُرَ بِها أَحدٌ من أهلِ البيتِ.

لَم تَستطِع فيحاء أَن تُصَدِّقَ ما سَمعَت من شظايا حديثٍ اقتحمَ أُذُنَيها رغْمًا عَنها، كانَ الحديثُ يدورُ بينَ خالِد ووالِدتِه في تلكَ اللحظاتِ.

فيحاء تِلكَ الشابةُ الخلوقةُ الرقيقَةُ، التي ما اعتادَت استِراقَ السمعِ أَبدًا.

وقفَت لدقائِق حينَ سمعَت أَنها محوَرُ الحديثِ، استطاعَت أن تفهَمَ ما يدورُ في الداخلِ، وعمَّ يدورُ النقاشُ الحادُّ بينَهما، لكن الذي فاجَأ فيحاءَ وأثرَ فيها أنَّ هذا الكلامَ الغريبَ صدرَ عن جارَتِها المُقربَةِ إليها أُم خالِد، التي تعدُّ بمثابَةِ والدتِها، إضافةً إِلى الصداقَةِ الحَميمةِ التي تربطُها بابنَتِها شَيماء، التي كانَت سببًا لتِلكَ الزيارَةِ، وبالتالي كانت سببًا لسماعِ ما سَمِعَتْ.

ذَهبَت فيحاءُ تقصدُ منزلَ صديقَتها شيماءَ لإِهدائِها بعضَ

الكُتبِ الجامِعيةِ التي كانت قَد وعَدَتها بها، بعدَ أَن قررت شيماءُ أن تدرسَ التخصصَ ذاتَهُ الذي درسَتهُ فيحاء؛ كنوعٍ من رد الجميلِ إلى خالد؛ شقيقِ شيماء، الذي كانَ يُساعدُها في أَثناء دراسَتِها الجامعيةِ، قبلَ أَن يتخرجَ ويُصبحَ صحافيًّا لهُ اسمٌ ووزنٌ في الوسطِ الصحافي.

دخَلت فيحاء غرفَتها ووضَعَت الكُتبَ جانبًا، ثم خرَجَت لتُساعدَ والدَتها في بعضِ أَعمالِ البيتِ، وما إِن بدَأت بتنظيفِ بعضِ الأواني في المطبخِ؛ حتى عادَت بذاكرَتها إلى الْوراء، تَستذكرُ ما مَر من ربيعِ عمرِها الأَخضَر، تذكرُ اليومَ الأولَ الذي دخلَت فيهِ الجامعةَ، حيثُ كانَ نقطةً فارقةً في حياتِها، طالما حلمَت بهذا اليوم، كانت مِن أَكثر الطُّلابِ نشاطًا وذَكاءً وحيويةً داخلَ الجامعة، لَم يفُتها مؤتمرٌ ثقافي أو عِلمي إِلا كانَت على رَأسِ المشارِكات، ولا نشاطٌ طلابيّ إِلا كانت هي المُبادرة لَه، زادَها تَعطشُها إلى العلمِ والتعلمِ جمالًا عقليًّا، إضافةً إلى جمالِها الحسيِّ، كانت فيحاءُ تغازلُ النجومَ بعيونها الواسِعةِ كالمجرةِ، وتعانقُ السحابَ بقوامِها الممشوقِ وجذعها الفارعِ الخيزرانيّ، وحجابها الأَبيض الملائكي، الذي يُخفي تحتهُ ضفائرَها الفَجريةَ السَّمراء، فَيَزيدها وقارًا وبهَاء، خدودُها القرمزيةُ تستعيرُ حلاوةَ التفاحِ، شفتاها الكرَزيةُ قطعةٌ فنيةٌ منحوتةٌ من ياقوت، وجهُها يختصرُ الأشياءَ والأسماءَ، ببساطةٍ شديدةٍ هي عبارَة عن قطعةِ فسيفساء، تحبُّ صديقاتِها، وتَهتَم لأَمرِهن، تبدي النصيحةَ

لهن عندما تُستشارُ بقضيةٍ معينة تخصُّهن، تُبادلُ الجميعَ الحبَّ والاحترامَ، وتهتمُّ بما يجري حولَها من أَحداثٍ، تبدي رَأيَها في أي قضيةٍ تتعلقُ بالشأنِ العام بكل جُرأَةٍ، دونَ خوفٍ أو وجلٍ.

انقلَب حالُ فَيحاءَ رَأسًا على عقبٍ بعد اندلاعِ انتفاضةِ الأقصى، إذْ كثرَت المجازر، وتعَددت أشكالُ الموتِ والقتلِ بِحَق شعبِنا الأَعزلِ، لم تستَطع السكوتَ في ظل فصلِ الصمتِ الذي خيمَ فوقَ حقولِ الصامِتين.

كانت فيحاءُ في مُقدمة كُل مظاهرةٍ، تجوبُ شوارعَ المدنِ، وعلى رَأسِ كُل اعتصامٍ أَمامَ المُؤسساتِ الدوليةِ والحقوقِيةِ، إلا أن هذهِ النشاطاتِ لَم تَرْوِ ظمَأَها الثورِي، وظَلت دونَ طموحِها وأَدنى من أمواجِ غضَبِها الثائرِ، فَأرادت أَن تتقدمَ أكثرَ وأَكثرَ، فهي ليسَت ممن يُقدمون دماءَهم وأَشلاءَهم على مذبحِ الحريةِ والتحريرِ، هذهِ فيحاءُ تهمسُ في أذنِ صديقاتها، وتردُ على أسماعِهن:

- نحنُ لم نُخلق للبيتِ والزواجِ والإنجابِ فقط، ولا للمُتعة والسريرِ، بِاستطاعتنا أَن نُقَدمَ لشعبِنا وأُمتنا الكثير، والحالةُ النِّضاليةُ لَيسَتْ مُقتَصِرَةً على جِنسٍ دونَ آخَر، أو فئةٍ دونَ أُخرى، أو جيلٍ دونَ آخَر، يجبُ أَن نتكاتَفَ جَميعًا شيبًا وشَبابًا، رجالًا ونساء، شيوخًا وأطفالًا؛ لنُقاوم ونتصدى للعدوانِ.

هكذا كانَت فيحاء، جميلة بوَجهِها الصبوح، جميلةٌ بعلمِها

وثقافَتِها، جميلةٌ بآرائِها السياسيَّة والنضالية.

إلا أَن نقطَةَ التحولِ في حياتِها النضاليةِ بدَأت منذُ عصرِ ذلك اليوم، في أثناء مُغادرَتِها الجامعَة في طريقِ عودَتِها إلى البيتِ، أَمتارٌ قليلةٌ فصَلت بينها وبينَ صوتِ انفجارٍ هزَّ المكانَ، حيثُ كانت ضمنَ من هرعَ نحو صوتِ الانفجارِ؛ لتتبينَ ما الذي حدثَ، حين وصلَت فوجِئَت بفظاعةِ المشهدِ الذي لا يستطيعُ أعتى الرجالِ تحملَهُ، سيارةٌ تفحمَت جَراء استهدافِها، إلى جانِبِها أَشلاء مُتناثرَة، لم تستطع رقَّتها غير المتناهِيةِ ومَشاعرُها الجياشةُ احتمالَ المنظر.

لم تتوقفْ عن البكاءِ إلا بعدَ أن ألقت بحزنِها في أحضانِ والدَتِها، التي ظلت تُربتُ على كتفها وتواسيها حتى هدَّأت من روعِها، يومها أقسَمت ألا تَبكي بعد ذَلك، وضَعت نفسَها مكانَ وَليِّ الدم:

- الثأرُ ثأري، والدمُ دمي، وهذا أَخي وحانَ وقتُ الانتقام!

بدأَت فَيحاءُ تَبحثُ عن رجالِ المقاومةِ، تَسألُ كلَّ مَن تعتقدُ أن له صلةً بهم، لا شيءَ نصبَ عينيها سِوى الانتقامِ، وجثةِ شابٍّ متناثِرةٍ إلى جانبِ سيارةٍ متفحمةٍ.

يومها سَألَهَا الشابُّ عما يستطيعُ تقديمَه لها، أجابَتهُ بكل جرأةٍ:

- حزامٌ ناسفٌ، ودليل طريقٍ يوصلُني إلى داخلِ حلمي المحتلِّ.

أخبرتهُ بقصةِ انتقامها، فأجابَ:

- بإمكانكِ أن تخدمي شعبَكِ بطرقٍ أخرى غير الموتِ.

قالَ الشاب المقاوم. كانَ هذا الجوابُ مستفزًّا لها، لكنها رَدت بثقةٍ وحزمٍ:

- لا فرقَ بيني وبينك، فكما تستطيعُ أنتَ أن تحملَ السلاحَ؛ فأنا أيضًا أستطيعُ حملَ الموتِ والجراحِ، وهذهِ المعركةُ لا تخصكَ وحدَك، وليست حِكرًا على الرجالِ فقط، ألم تسمعْ بمَن قاومنَ وضَحَّيْنَ بأنفسهن فداءً لشعبِنا؟ أستطيعُ أَن أسردَ لكَ التاريخَ من جديدٍ.

حينها اعتذَرَ منها الشاب المُقاومُ، وقالَ:

- لا داعي لأن تسردي شيئًا، لم أقصد الإهانةَ أو التشكيكَ في قدراتِك، أو قدراتِ غيرك، لكن ليسَ مطلوبًا منكِ الموت، هناكَ كثيرٌ من الشبابِ لا يجدونَ سلاحًا يُقاتلونَ به.

حاولَ الشاب المقاومُ التهربَ منها والمراوغةَ، لكنه في النهايةِ لم يجد مفرًّا من النزولِ عندَ رغبتها وإِصرارِها على تنفيذِ ما جاءَت من أَجلِه، خاصةً عندما هددَته بالذهابِ إلى أَحدِ الحواجز العَسكريةِ بالسكينِ إن لم يُساعدها.

لكنَّ الأمورَ لم تَجرِ كما أرادَت فيحاء، حيثُ وعَدَها الشابُّ المُقاومُ أن يتصلَ بها، ويَستدعيها لتنفيذِ رغبتِها، بعدَ أَن يُعد لها ما طلَبَتْ، ويختارَ لها المكانَ والزمانَ والشخصَ الذي سوفَ يُرافقُها لمكَانِ الفداء.

طلبَ الشاب المُقاومُ من أَحد رفاقِهِ في المجموعةِ الفدائيةِ أَن

يَستعد لصحبةِ فيحاء؛ ليكونَ دليلَها ومرشدَها لمكانِ عُرسِها بعدَ يومين، ولسوءِ الحَظ اعتُقِلَ ذلِكَ الرجلُ، الذي كانَ يعرفُ اسمَ فيحاء، ونيتَها تنفيذ انتقامِها، حيثُ لم يَستطع الصمودَ، واعترفَ بكلِّ شيءٍ في أثناء عمليةِ التحقيقِ الميدانيةِ القاسيَةِ، التي أَجرَتْها معهُ أجهزةُ العَدو الأَمنِية.

تستَعيدُ ذاكرةُ فيحاءَ تلك الليلةَ السوداءَ، التي داهمَ فيها الجنودُ المحتلونَ منزلَها، لتتحولَ البلدةُ إلى ثكنةٍ عسكريةٍ، في مشهدٍ حربيٍّ لم يَسبقْ له مثيلٌ، حتى ظنَّ مَن رأى تلكَ القوةَ العسكريةَ أَنَّ هناكَ معركةً حربيةً سوفَ تحتدمُ بعدَ قليلٍ.

اقتيدَت فيحاءُ إلى إِحدى السياراتِ العسكريةِ بعدَ أن كُبِّلَت يداها الناعمتان بالأصفادِ الحديديةِ الثقيلةِ، وأُطفئَ ضوءُ عينيها بقطعةِ قماشٍ؛ كي لا ترى وجوهَهُم القلقةَ والمرعوبَةَ.

مضَت بها سيارةُ الجيب العسكرِيةُ، تقتحمُ صمتَ البلدةِ وسكونَ الشوارعِ الهادئةِ، حتى وصَلَت إلى أحدِ مراكزِ التحقيقِ، عرفت فيما بعد أنهُ مركزُ تحقيقِ المسكوبيةِ، أُدخِلَت إلى أحد مكاتِبِ التحقيقِ، كانَ بانتظارِها عددٌ مِن المحققين، كُبِّلَت إلى أَحد الكراسي الثابتةِ في أَرضيةِ مكتبٍ صغيرٍ، لا وجودَ فيهِ لأي أثاثٍ فاخرٍ سوى طاولةٍ خشبيةٍ ثُبِّتَ عليها جهازُ حاسوبٍ، وخلفها مباشرةً كرسي بلاستيكي، وفي أعلى زاويةِ المكتبِ كانَ هُناك شُباك صغيرٌ يحتوي

على مكيفٍ هوائي ضخمٍ مُثبتٍ داخلَ ذلكَ الشُّباكِ.

دخل المحققُ الأولُ وفي صحبتِهِ مجندةٌ شابةٌ حسنةُ المنظرِ، بدأ حديثَهُ بشكلٍ استفزازيٍ تهكُّمِيّ:

– أليس من المؤسفِ أن يذهبَ هذا الجمالُ الرائعُ إلى جحيمِ السجنِ أَيتها الجميلة؟!

ثم وضَعَ يدَهُ على كتفِ تلكَ المجندةِ، وأخذَ يداعبُ شعرَها وهو يوجهُ حديثَه إلى فيحاء، بينَما كانَت تلكَ المُجندةُ تنظرُ إلى فَيحاءَ نظرةَ فُحشٍ وتَشَفٍّ.

تابعَ المحققُ حديثَه الاستِفزازِيَّ:

– لماذا أردتِ أيتها الجميلةُ الانتحارَ وقتلَ الأبرياء مِن أطفالٍ ونساء؟ ألم تَجدي مَن يتزوجُكِ أيتها الحُلوة؟

حافَظَت فيحاءُ على هدوئِها وهي تجيبُ على سؤالِه، وهذَا ما أثارَ حنقَهُ وغضبَه، عندما تجاهلَت محاولةَ استفزازِها.

– أنتمُ القتلةُ، وأنتم من يقتلُ الأطفالَ والنساءَ والأبرياءَ، ألا يقومُ أبطالُكُم المزعومونَ المُختبئونَ خلفَ مقودِ الطائِراتِ بإنزالِ قنابلِ الموتِ فوقَ رؤوسِ أطفالنا؟

– إذَن تعترفين أنكِ كُنتِ تودينَ القيامَ بعمليةٍ (انتحاريةٍ)، أليسَ كذلكَ؟

أشاحَت فيحاءُ بوجهِها إلى الجهةِ الأُخرى وهي تقولُ:

- أنا لا أعرفُ عمَّ تتحدثُ، ولم أفعلْ شيئًا.

في تلكَ اللحظاتِ؛ دخلَ محققٌ آخر وهو يُخاطبُ المحققَ الأولَ:

- لا لا يا آفي، أنتَ رقيقٌ وحنونٌ جدًّا مع هذهِ المُخربةِ، يبدو أَنهَا لا تريدُ التفاهمَ، اخرج أنتَ ودعْ لي التحقيقَ مع هذهِ الإرهابيةِ، يبدو أَنني سوفَ أستخدمُ أسلوبًا أفضلَ من هذا الأسلوبِ الرقيقِ الذي تستخدمُه أنتَ.

- لا؛ دعْ لي التحقيقَ معها، أنا مُتخصصٌ في التحقيقِ مع الجميلاتِ أمثالِها.

أجابَ المحققُ الأولُ. أخذَ المُحققان يسألان ويُجيبان على الأَسئلةِ في الوقتِ ذاتِه، في مُحاولةٍ لإرهابِ فيحاءَ التي تجَاهلَتهُما، كأنهُما ليسا حولَهَا.

- اسمعي أيتها المُخربةُ؛ إن لم تَعترفي وتُخبرينا القصةَ الكاملةَ التي نعرفُها؛ سوفَ نجعَلُكِ تتمنينَ الموتَ ثم لا تَجدينَه.

ثُم تابعَ تهديده:

- سوفَ نُعَريكِ من ملابسِكِ، ونجعلُ الجميعَ يرى منظرَ ذلكَ الجسدِ الجميلِ، ومَن يدري.. ربما تحدثُ أشياء أُخرى!

وهُنا نظرَت إليهِ فيحاءُ نظرةً حازمةً غاضبةً:

- أَعرفُ أنكم سفلةٌ، ومنحطون، وتفعَلون كُل شيءٍ قذرٍ، وهذا ليسَ غريبًا عليكم، لكن يجب أن تعلمَ أنه بمجرد خروجي من هنا

سوفَ أقومُ بعقدِ مؤتمرٍ صحافي، وأخبرُ الدنيا بأسرِها بجرائمكم، وأُخبرُ شعبَنا كذَلِك، إن العرضَ والشرفَ أغلى مِن دمائِنا، وسوفَ تتحملُ أنتَ وأمثالُكَ مسؤوليةَ دماء عَشراتِ الجنودِ والمُستوطنينَ الذينَ سوفَ يدفَعونَ ثمنَ أي مسٍّ بأَعراضِنا، ولن أَتَرددَ، ولَن أخجلَ أن أُخبرَ أبناءَ شعبي بأي شيءٍ يحدثُ معي هنا.

وهنا استَشاطَ غضبُ ذَلكَ المحققِ الذي أخذَ يصرخُ:

- أخرجوا هَذهِ المخربةَ من هنا، أخرِجوا هذهِ الإرهابيةَ من أمامي!

سُرعانَ ما قامَت المجندةُ بوضعِ نظارةٍ سوداء فوقَ عينيها، وأخرجَتها إلى مكتبٍ آخَر.

***

دخَلت فيحاءُ المكتبَ الجديدَ؛ فوجدت بانتظارِها مُحققًا آخَر، برفقتِه مجندةٌ أخرى لم ترَها من قَبل.

بدأَ هذا المحققُ كلامَه بشيءٍ من الهدوءِ واللامبالاة، موجهًا حديثَه إلى فيحاءَ، وهو ينظرُ في وجهِ تلك المجندةِ الشقراء التي كانَتْ على قدرٍ كبيرٍ من الجمالِ والحُسنِ، يداعبُ شعرَها وشفتَيها بعد أن أجلَسَها على إِحدى رُكبتيهِ، بينما كان يجلسُ على الكرسي المُقابلِ لكُرسي فيحاء المثبتِ بأرضيةِ المكتب.

- اسمَعي يا فَيحاء، سواءً اعترفتِ أم لمْ تَعتَرفي، هناكَ شهودٌ

ضِدك، والمحكمةُ سوفَ تكتفي بذلكَ، وتحكمُ عليكِ بالسجنِ لِمُدَّةٍ طويلةٍ، لكن إن اعتَرَفتِ سوفَ يتم تخفيفُ الحكمِ عنكِ.

ثم تابعَ ذلك المحققُ حديثَه التَّرهيبيَّ والترغيبيَّ لفَيحاء، بينَما أطلقَ العنانَ ليديهِ وشَفتيهِ للعبثِ بجسدِ تلكَ المجندةِ المُرافقةِ له، يُقَبلها كأنهُ في حالةِ عشقٍ مع زوجتِه في غرفةِ نومِهِ، وليسَ في مكتبِ تحقيقٍ، يُحاولُ استثارَة مشاعِرِ فَيحاء، واستِفزازَ الأُنثى داخلَها.

وصلَ عبثَه بجسدِ تلكَ المُجندةِ إلى الجزءِ السُّفلي والحَساسِ من جسَدِها، تظاهرَ أنهُ يريدُ أن يُجَردَها من ملابسِها، لكنهُ تراجعَ في اللحظةِ الأخيرَةِ، وأنزلها عن رُكبَتيه وقالَ:

- ليسَ الآنَ يا عزيزتي، ليسَ أمامَ فَيحاء.

ثم نظرَ إلى فيحاءَ بعدَ أن وقفَت المجندةُ قربَ البابِ، وسأَلها:

- ماذا قُلتِ يا فيحاء؟ ألا تريدينَ المُساعدةَ وتخفيفَ حكمك؟

نظرَت إليهِ وقالَت:

- لا أريدُ منكُم شيئًا، وأنا لم أرتَكبْ ذنبًا، لا أعرفُ أحدًا، ولم أَطلب شيئًا من أحدٍ.

في تلك اللحظةِ؛ نظرَ المحققُ إلى المُجندةِ، أشارَ إليها بعينهِ، وسرعانَ ما أَخرَجت فيحاءَ من المكتبِ إلى زنزانةٍ أسفلَ المبنى.

***

بعدَ ما يقاربُ الشهرَ، عندَما عجزوا أَن يَكسروا إرادَتَها،

ويَئِسوا من اعترافِها كما يئسَ أمثالُهم من أصحابِ القبورِ؛ تمَّ نقلُ فَيحاء إلى سجنِ النساءِ بانتظارِ المُحاكَمة، ليتم الحكمُ عليها بعد عامٍ من الانتظارِ في السجنِ الفعلي بالسجنِ لثماني سنواتٍ، كانت في العشرينَ من عمرِها آنذاكَ.

استَثمرت فيحاءُ مدةَ محكوميَّتِها بالقراءةِ والتعليمِ وصقلِ شخصيتِها بمزيدٍ من العلمِ والمعرفةِ، وبعد الإفراجِ عنها أَكملَت دراسَتها الجامعيةَ إلى أَن تَخَرجَت.

عادت فيحاءُ لتستَذكرَ ذلكَ الحديثَ القاسي والمُرَّ الذي سَمعتهُ قبلَ قليلٍ من جارَتِها أم خالد، كانَ صوتُها يصلُ مسامعَ مَن يقتربُ من ساحةِ المنزلِ:

– يا أُمي؛ فيحاء صبيةٌ جميلةٌ، متعلمةٌ ومُثقفةٌ، إضافةً إلى أنها صديقةُ أُختي شيماء وجارَتُها، ونعرفُها جيدًا، وأنا أُحِبها، ولا أريدُ الزواجَ من غيرها، ولا أعرفُ سببَ رفضِكِ لها.

– يا بُني؛ فيحاء (على عيني وراسي)، لكِنها أسيرةٌ، أمضَت ثماني سنواتٍ داخلَ السجنِ، وعمرُها الآنَ تجاوزَ الثامنةَ والعشرين، أنتَ تستطيعُ أن تتزوجَ ابنةَ العشرين أَو أَقل من ذلكَ!

– يا أُمي! كانَ من الممكنِ أَن أكونَ أسيرًا وأدخلَ السجنَ، أنا أيضًا تجاوزتُ الخامسةَ والثلاثينَ مِن عمري، وكَونها أسيرَةً لا يُغيرُ شيئًا في إنسانيَّتِها وأنوثَتها، ولا في مَشاعري نحوَها على الإطلاقِ.

– أنتَ رجلٌ، لا يعيبُك شيءٌ، لا كبرُ سنكَ، ولا سجنكَ، أنتَ كما قلتُ لك تستطيعُ أن تتزوجَ ابنةَ العِشرينَ وتنجب، ثم ما الذي يدرينَا ما حدثَ معها داخلَ السجنِ، يقولونَ إن اليهودَ أولادُ حرامٍ، يعتدونَ على الأَسيراتِ في أَثناء التحقيقِ، ربما..! وأنا لا أرضى لكَ أقلَّ من (بنت بنوت).

– يا أُمي؛ هذا كلامٌ غريبٌ، ولا أساسَ لهُ من الصحةِ، أنا لا أريدُ لا بنتَ العشرين، ولا بنت الرابعة عشرة، أريدُ فيحاءَ فقط، ولَن أتزوجَ غيرَها، ليسَ من المعقولِ أن أَتخلى عنها لمُجردِ إشاعاتٍ وخزعبلاتٍ وكلامٍ غريبٍ يضعُهُ العدو في رؤوسِنا؛ من أجل تحطيمِ مُناضلينا ومُناضلاتنا، وحتى إن كانَ ذَلكَ صحيحًا؛ فالأسيرةُ التي تدفعُ أَعَز ما تملكُ يجبُ أَن نُقَبلَ قدَميها، لا أن ننبذَها ونعاقبَها على بطولَتِها وعظمتِها.

لَم يقطعْ شريطَ ذكرياتِ فيحاء إلا صوتُ البابِ الذي كانَ يقرعُ بشكلٍ سريعٍ، كانَ هناكَ خطبٌ ما قد حدثَ.

– افتحي البابَ يا فيحاء.

هتفت والدَتُها من إحدى الغرف الداخليةِ. وما إن فتَحت فيحاءُ البابَ حتى أطبقت على شفتها من هولِ المفاجَأَةِ، التي أعجَزتها عن الكلامِ، ولم تدرِ ما تقولُ حينما رَأت جارَتها أم خالد وهي تبكي وتصرخُ:

– أرجوكِ يا بنيتي ساعدينا، لا ندري ماذا نفعلُ، أنت الوحيدةُ التي باستطاعتك مساعدَتنا يا فيحاء!

وهنا قاطعتها فيحاءُ، وأَخذت تُهدئُ من روعِها:

– تفضلي يا خالَتي؛ ادخلي، أخبريني ما الذي جرى.

ثم سَألت خالدًا:

– ما الذي جرى يا خالد؟

– لقد اعتَقلوا أُختي شيماء على أحد الحواجز العسكريةِ، في أثناء عودتها من الجامعةِ قبلَ قليلٍ.

الهروبُ من الموتِ إلى الموتِ

قبل قليلٍ؛ عادَ (أبو طه) من المقبرةِ بعدَ أن دفنَ دفعةً جديدةً من عائلتِه، التي اعتادَت المآسي والأَحزانُ زيارَتَها من حينٍ لآخَر، لا يعرفُ إن كانَ قدرُه أَن يكونَ الموتُ رفيقَ عائلَتِه منذُ أن تركَ حيفا ورحلَ.

كان دائمًا يرددُ بعدَ كُل مُصيبةٍ:

- لو كُنتُ أَعلمُ الغيبَ ما رَحلتُ، كنتُ متُّ هناك!

حينَ كانَ يسألُه أحدٌ عن بلدِه الأصلي؛ يسترسلُ في الإجابةِ، فَيَصف حيفا حيًّا حيًّا، بيتًا بيتًا، يُنهي حديثَه بتنهيدةٍ تكادُ تقطعُ أحشاءَه، ثم يقولُ:

- ليتني لم أرحلْ، ليتَنا لم نرحلْ يا بُني، هَربْنَا من الموتِ إلى الموت.

لا تزالُ ذاكرتُه تعجُّ بالصورِ والذكرياتِ، لم تُغادرْ أيامُ الطفولةِ خلدَه، قضى جلَّ طفولتِه وشبابِه فوق أرصفةِ ميناءِ حيفا، كان يرافقُ والدَه شيخَ الميناء، وشيخَ الصيادين، كما كان يُلَقب، وعندما كبرَ ورثَ مهنةَ والده، حتى كانَت النكبةُ والتهجيرُ.

لا زال حي الهادار مَحفورًا بذاكرته حتى اللحظةِ، يحفظُ بيوتَ الحيِّ عن ظهرِ قلبٍ، يعرفُ سُكانَ الحيِّ فردًا فردًا، يحفظُ أسماءَ الرجالِ والنساءِ والأطفالِ، كَأنها أسماءُ أفرادِ أُسرتِه، لا يَغيبُ عن خلدِه صغيرُه وكبيرُه، إنها ذاكرةُ المكانِ الحيَّةُ، يعي جيدًا ذلكَ اليومَ الذي سقَطت فيهِ المدينةُ، وسقطت أحلامُهُ وفرحتُه معها، تَم حصارُ المدينةِ من جهاتٍ ثلاثةٍ، وتُركت جهةُ البحر فقط مفتوحةً أمامَ العُزَّلِ الهاربينَ من الموتِ.

سارعَت والدتُه يومَها إلى جمعِ شقيقاتِه البنات، والهروبِ على متن أحد القواربِ إلى لبنان؛ خشيةً على عرضِ بناتها وشرفِهنّ، ثم تبعَها هو وعمهُ أبو راشِد، إضافةً إلى أشقائِه الذكورِ الستة، واستَقَروا جميعًا في مخيمِ تل الزعتر، حتى كانَ اللقاءُ الأولُ مع الموتِ، حيثُ قضى عمهُ أبو راشد واثنان من أعمامِه شهداء؛ نتيجَةَ قصفِ المليشيات المُتحالفَة مع المُحتل للمخيم، بعدَ اندلاعِ الحربِ الأَهليةِ اللبنانيةِ.

ثم كانَ التهجيرُ الثاني، حيثُ غادرَ مخيمَ تل الزعتر إلى مُخيم صبرا وشاتيلا، مع أَشِقائِه وشقيقاتِه، كبرَ الهَمُّ، تزوجَ هناك، وأنجبَ أطفالًا، وكبرت العائلةُ، وزادت بيوتُ الصفيحِ بيتًا جديدًا، وطالَت سنواتُ الحربِ الأهليةِ ومرارَتُها.

ها هي الأيامُ تجري قُدمًا، وغيومُ الحزنِ تُظللُ سماءَ أبي طه

وعائلَته، طائراتُ المحتلين تَقصفُ مخبزَ مخيمِ شاتيلا، فيُودِّع شقيقَه الأصغرَ واثنين مِن أبنائهِ، بعد أيامٍ قلائلَ ترحلُ والدتُه السبعينيةُ إلى الله، بعد صراعٍ طويلٍ مع أمراضِ القلبِ والوطنِ.

يجتاحُ العَدوُّ لبنانَ في عامِ 1982م، ويصلُ إلى بيروت، العربُ يتابعون مبارياتِ كأسِ العالمِ، بيروتُ تحترقُ، المُخيماتُ تُدَمرُ فوقَ رؤوسِ ساكِنيها، بيروت تغادرُ الثورةَ، مجازر صبرا وشاتيلا، أبو طه يفقدُ ثلاثين فردًا من أفرادِ عائلَتِه؛ ثلاثة أشقاء مع أولادِهم ونسائِهم، اثنتين من شَقيقاتِه وأولادَهما، عددًا من أولادِ عمه، يشدُّ الرحالَ مرةً أُخرى، يطرقُ أبوابَ اللجوءِ، يقررُ مغادرةَ المخيمِ الذي دُفِن فيه أشقاؤُه، يحملُ أولادَه وزوجتَه، تستقبلُه بلادُ الرافدين بحفاوةٍ، يُصبحُ أحدَ رعاياها، يستقرُّ في حيِّ الكاظميةِ في بغداد، يبتسمُ له القدرُ إلى حينٍ، لكن الفرحةَ تبدو على خلافٍ مع اللاجئِ الفلسطيني، تسقطُ زوجةُ أبي طه شهيدةً في أثناء العدوان الأمريكي على العراقِ في عام 1991م، بعد قصفٍ استهدفَ سوقَ الحي آنذاكَ، يدفنُ زوجتَه، ثم يُرددُ جملَتهُ الشهيرَةَ:

– لو كنتُ أعلمُ الغيبَ ما رحلتُ، لَيتني متُّ هناكَ في حيفا.

هربَ من حيفا ليتجنب الموتَ، فوجدَ الموتَ ينتظرُه في المنافي واللجوءِ، حتى أصبحَ ماركةً مسجلةً على اسمِ أبي طه.

التتارُ يجتاحونَ بغدادَ مرةً أُخرى في عام 2003م، ترتقي بغداد

إلى العُلا في التاسعِ من نيسان.. يرتقي معها اثنان من أولاده شُهداء، عصاباتُ التتارِ تعيثُ فسادًا في بغداد، تستقبلُه هذهِ المرةَ أختُ بغداد؛ دمشقُ العروبة والإسلام، تحتويه بين ذراعيها مع مَن بقي له من أبناء؛ طه وزوجته وابنه، ومحمد وزوجته وابنتيه، وهم مَن تبقوا لأبي طه على مدارِ سنواتِ الموتِ والتهجيرِ واللجوء.

استقرَّ أبو طه مع أبنائِه وعائلتِه في مخيمِ اليرموك، الذي يسكنُه الفلسطينيُّ والسوريُّ معًا، حيثُ تقاسمت دمشقُ لقمةَ الخبزِ مع بقيةِ أبنائِها العربِ، كما كانَت على الدوامِ، لكن الحياةَ عندما تتنكرُ لأحدٍ تُصبحُ المآسي سمةً فارقةً له، فَلَم يبقَ لأبي طه وأمثالِه إلا دمَشق حضنًا أَخيرًا، أرادَ التتارُ هدمَ هذا الحضنِ من الداخلِ، فبدَأت جحافلُ الموتِ والإرهابِ تُؤَرقُ ليلَ دمشق، تعاقبُها على عروبتِها، وعشقِها لأبنائِها.

تم حصارُ اليرموك، أُمطِرَ قصفًا ورعبًا بنيرانِ أذنابِ التتارِ، مرةً أُخرى؛ وُجِد أبو طه يُمارسُ مهنةَ اللجوءِ والترحالِ، لتحط رحالُه هذه المرةَ من حيثُ بدأَ، نقطة اللجوءِ الأول، كأن القدرَ أرادَ لدورَةِ اللجوءِ والتهجيرِ أَن تكتملَ، بدأَتْ في لبنان، وها هي تعودُ وتكتملُ أيضًا في لبنان، محمد، الابن الأصغرُ لأبي طه، ذهبَ إلى مخيمِ عينِ الحلوة، ليستَقر مع عائلتِه وزوجتِه، أبو طه والابنُ الأكبرُ طه وزوجته وابنهما فتحا مخيمًا جديدًا، تقاسَما الخيمةَ والمحنةَ مع

إخوانِهم السوريين، سئمَ طه حياةَ اللجوءِ والترحَالِ، أرادَ أن يبحثَ عن حياةٍ جديدةٍ، ومستقبلٍ جديدٍ لطفلِه الصغير في مكانٍ آخر مِن هذا العالَمِ، لا يريدُ لطفلِه أَنْ يُمارسَ مهنةَ اللجوءِ والترحالِ، قررَ أن يُهاجرَ ويتركَ بلادَ العربِ كافةً، في المساءِ أخبرَ والدَه وزوجتَه أَنهُ سيُغادرُ إلى أوروبا عبرَ تركيا، وبعد أن يستقرَّ وضعُهُ هُناكَ سوف يرسلُ لهما، ويَصحبهما للعيشِ معه، حاولَ أبو طه ثَنْيَهُ عما عزمَ عليه دونَ جدوى، غضبَ منهُ، حلفَ أيمانًا مغلظةً ألا يكَلمه، وألا يتعرَّف عليهِ إن هو غادَرَ، هَددَهُ بِأن يغضبَ عليهِ طوالَ عمرِهِ.

في المساء؛ ركع طه بين يدي والدِه، قبلها، توسَّلَ إليهِ أن يدعَهُ يُجربُ حظّهُ، ليس من أجلِه، بل من أَجلِ حفيدِه، بكى طالبًا الرضا، واستَعطفَهُ لِيباركَ سفرَه، طلبَ منهُ أن يدعَه يتخِذ قرارَهُ بنَفسِهِ مرةً واحدةً فقط، أخيرًا رقَّ له أبو طه، ودعا له بالتوفيقِ، وأوصاهُ بالزوجةِ والولدِ، ثم غادرَ بعدَ أن باعَ مصاغَ زوجتِه، وكُل ما يُمكنُ أن يُباعَ؛ لتوفيرِ المبلغِ المُراد دفعهُ للمهربين؛ مِن أجلِ نقلِه إلى الضفةِ الأُخرى للقارةِ الأوروبيَّة.

وصلَ إسطنبول، ومنها إلى مدِينَةِ أزمير، في الليلةِ ذاتِها كانَ تُجارُ الدم يحملونَ أفواجَ البشرِ في أحد القوارِب كعلبِ السردين، ووضعوا في القاربِ أكثرَ مما يحتمل، من أَجلِ أن تزدادَ جيوبُهم بضعَ دولاراتٍ.

أبحرَ طهَ مع مئاتٍ من المغلوبين على أمرهم إلى المجهولِ، كانَ العدوُّ هذهِ المرةَ من نوعٍ آخَر، لم يَخشَهُ طه أبدًا؛ لأنه عرفَهُ وألفَه، وتربى بقُربِ شواطئِه، فلم يعتدْ منهُ الغدرَ أبدًا، لكن البحرَ هذهِ المرةَ تنكَّرَ لأصدقائِهِ، ووجَّهَ خنجرَهُ إلى الظهرِ، فما إن انتصفَ الليلُ حتى بدَأت ثورةُ أمواجِهِ تعصفُ بركانَها، بَدأَ القاربُ يعلو ويهبطُ، يميلُ يمينًا تارةً، ويسارًا تارةً أُخرى، حتى انقلبَ، وابتُلع من كانوا على ظهرِهِ جميعًا.

في اليومِ التالي؛ كانت الأَمواجُ تقذفُ بالجُثثِ على الشاطئِ التركي، تناقلَت وسائلُ الإعلامِ نبَأَ انقلابِ قاربِ لطالبي اللجوءِ إلى أوروبا في عرضِ البحرِ، في ساعاتِ المساء؛ تلقَّى أبو طه اتصالًا من مجهولٍ، أخبرَه أن ابنَهُ طه أحدُ ضحايا هذا الحادِثِ، بعد أسبوعٍ؛ وصَلت جثةُ طهَ إلى لبنان؛ بعد اتصالاتٍ وتنسيقٍ مع السفارةِ التركيةِ في بيروت، ودُفِن في مقبرةِ شُهداء صَبرا وشاتيلا، بالقربِ من أفرادِ عائلتِه، الذينَ قضوا في المجزرَةِ.

عندما تَبكي الجبالُ

دخلَ أبو محمُود زنزانتَهُ بغيرِ الوجهِ الذي خرَجَ بهِ لزِيارَةِ عائلَتِه، أَلقى تحيةً على زملائِهِ في الحجرَةِ، ثم استلقَى على برشِه[1] الأَرضي في زاويةِ الغرفةِ، لم تَكُن هذهِ عادة المُناضِلِ الكَبير أبي محمود، لم يعْتَدْ زملاؤُه منهُ الصمتَ منذُ أَن حطَّت أقدامُهم في هذا المكانِ وعايشوه، لم يَعرفوهُ إلا جبلًا شَامخًا لا تكادُ البسمَةُ تغادِرُ مُحياهُ، كانَت آثارُ الدموعِ باديةً في عيونِ أبي محمود، ما يعني أَن هناكَ أمرًا جلَلًا قد حدثَ؛ لأَن أبا محمود لا يَبكي في أَحلَك الظروفِ، فلماذا الآن؟ تُرى ما الحدثُ الذي جعلَ الدموعَ تَفيضُ من عَينيهِ هذَا اليومَ؟

عرفَهُ رفاقُهُ رَمزًا للتحدي والصبرِ والصمُودِ، كانَ يَحُثُّهُم أَلا يدَعُوا العدوَّ يرى منهُم الضعفَ والدموعَ، بعضهم بالغَ في الأمرِ، وعدَّ أَن شخصًا بمثلِ مكانةِ أبي محمود لا يَحِق لهُ البكاءُ، ولا يجوزُ لهُ أَن يضعُف؛ لِأَنهُ لا يوجدُ أسيرٌ ولا مناضلٌ في الداخلِ والخارِجِ لا يعرفُ مَن هو أبو محمود، لِرمزيَّةِ هذا الرجلِ، يَستذكرُ رفاقُه العمَليةَ البُطوليةَ التي قامَ بِها أبو محمود، قبلَ اثنَين وعِشرينَ عامًا، لقد هزَّت

(1) البرش: هو مصطلحٌ يُطلقُ على السرير داخل غرفةِ السجن.

تلكَ العمَليةُ أَركانَ الكيانِ المُحتَل، استطاعَ أبو محمود اختراقَ كُل التَّحصيناتِ الأَمنيةِ في المَدينةِ المُقدَّسَةِ، ووضعَ سيارَتَهُ المُفَخخةَ في أحدِ تقاطُعات الطرقِ المُكتظةِ بالجُنود، وحين انفجرَت وصَلَت حصيلَةُ القتلى إلى أَكثَر من عِشرينَ جنديًّا.

اعتُقِل أبو محمود فيما بعد، على إثرِ وشايَةِ أَحدِ العُملاءِ بهِ، وشهدَ أنهُ رأى أبا محمود يَقودُ تلكَ السيارَةَ نحوَ المدينةِ المُقدسة، حُكِمَ أبو محمود مدى الحياةِ، أمضى منها حتى اللحظةِ أكثرَ من عشرين عامًا خلفَ القضبانِ، لم يلِنْ يومًا، لم يحْنِ جبهَتَه لسَجانٍ، كانَ قدوةً لرفاقه في كل شيءٍ، يلجَؤون لهُ في ساعةِ الشدةِ، يواسيهم في المصائب، يشاركهم الأفراحَ والأحزانَ، لم يَسمعْ منهُ أَحدٌ كلمَةَ تَذَمرٍ أو ضعفٍ أَو وهنٍ، فلماذا يبكي الآن؟!

تَهامسَ الأَسرى بينهم:

- رُبما تُوفيَ والدُه.

- رُبما تُوفيَت والدتُه.

- ربما حدثَ مكروهٌ لزوجتهِ أو ابنتِه.

أَصبَحَ كل أسيرٍ يُخمنُ طبيعةَ المُصيبةِ التي أَلَّت بأبي محمود، سُرعانَ ما طَردوا تلكَ الأفكارَ السلبيةَ من رؤوسِهم، اقترَح أَحدُهم على مُوَجِّهِ الغرفةِ أَن يذهبَ إليهِ ويسأَلَه، فأجابهم بأنه لا يَستَطيعُ؛ لأَنه لا يَحتملُ أَن يرى الدموعَ مرةً أُخرى في عيونِ أبي محمود إِن كانَ

هناكَ مصيبةٌ كبرى.

وجدَ الرفاقُ أنفسَهُم في حيرةٍ وارتباكٍ، لا أَحدَ يحتملُ أَن يرى هذا الجبلَ الشامخَ في حالةِ ضعفٍ، لكنهم في الوقتِ ذاتِهِ يريدونَ أن يعرفُوا ماذا ألَمَّ برفيقِ دربِهم؛ الأَخِ الكبيرِ، والأبِ الحنون، ربما يستطيعونَ المساعدَةَ، وفي أضعفِ الإيمانِ الوقُوف إلى جانبِهِ ومواساته إِنْ حدَثَ مكروهٌ لا سَمَح اللهُ، هكَذا تَعلموا، وهكذا كانوا منذُ أَن ابتلَعَهُم هذا المَكانُ الرهيبُ، يشدونَ من أزرِ بعضِهم بعضًا في المآسي، يُشارِكونَ بعضَهم الفرحةَ والحزنَ في كل المناسباتِ، اعتادوا أن يَكونوا كالجَسدِ الواحدِ، إذا أُصِيبَ مِنهُ عُضوٌ تَداعى لهُ سائرُ الجَسَدِ بالسَّهرِ والحُمَّى، اقترَح أحدُهم أَن يخبروا صديقَهُ المقربَ أبا صالحٍ؛ لأنهُ يُقاربُه في العمرِ وفي سنواتِ السجنِ، فلَم يفترقا منذ أن دخلا هذِه المقبرةَ، قبلَ اثنين وعشرينَ عامًا، ويعرفُ كيفيةَ التصرفِ في مثلِ هذهِ المواقفِ، وافقَ الجميعُ على هذا الرأيِ، وما إن حانَ وقتُ زيارةِ الغرفِ؛ حتى ذهبَ موجهُ الغرفةِ إلى حجرةِ أبي صالح المجاورة، وأخبرَه بحالةِ أبي محمود منذُ أَن عادَ من الزيارةِ، فما كانَ من أبي صالح إلا أَن ارتدى حذاءَه، وسارعَ إلى حجرَةِ رفيقِ دربِه أبي محمود، دخلَ الغرفةَ، ألقى التحيةَ على الموجودين، سحبَ كرسيه، وجلسَ مقابلَ أَبي محمود، الذي نهضَ مُرَحِّبًا بصَديقِه العَزيز، أَخذَ الجميعُ يرقبونَ ما سيَتمخضُ عن جلسَةِ أبي صالِح

مع صَديقه المقربِ من أَخبارٍ تَمنوا ألا تكون سيئةً، حيثُ جلسوا في مقدمةِ الحجرةِ، على الأبراشِ الأماميةِ المُجاورةِ للبابِ، وهي مسافةٌ كافيةٌ ليُوَفروا بعضَ الخصوصيةِ لرفيقِهما في القيدِ في غرفةٍ تتسعُ لأكثر من ثمانية عشر أسيرًا.

– مبارك الزيارة أخي أبا محمود، كيف الأهل؟ هل الجميعُ بخير؟

– بارك اللهُ فيك أخي أبا صالح، الحمدُ للهِ الكل بخيرٍ، الجميعُ يهدونَك السلامَ.

– أتعني أن الجميعَ بخير؟ ولم يُصَبْ أحدٌ بمكروهٍ.

شَددَ أبو صالح على هذِه الجملةِ.

– الكلُّ بخيرٍ يا أبا صالح، الحمدُ لله.

أَكدَ أبو محمود مرةً أُخرى.

– إذن ماذا هناكَ يا أبا محمود؟ ماذا تُخفي عني؟ انظرْ إلى هؤلاء الرجال، الجميعُ قلقٌ عليكَ، والجميعُ يسأل.. يريدونَ أن يعلموا ما الذي أبكى أبا محمود، أتُخفي عن صديقِ عمرِك ورفيقِ دربِك يا أبا محمود؟

– لا يا أبا صالِح، نحنُ عائلةٌ واحدةٌ هنا، وأنا لم أكُن أريدُ أن أُعَكر صفوَ هؤلاء الرجال الأبطالِ، هذا كُل ما في الأمرِ.

– ومع ذلك؛ نحنُ نريدُ أن نُشاطرَك همك، نريدُ أن نكونَ إلى جانبِك في أوقاتِ الرجاءِ والشدةِ، أنتَ شيخُ المناضلين هنا يا أبا

محمود، وما يصيبُكَ يصيبُنا.

قالَ أبو صالح.

- سأخبركَ بِكُل شيءٍ.

وهنا نظرَ أبو محمود لبقيةِ رفاقِه، وأشارَ إِلَيهم بيدهِ:

- تَفَضلوا يا أحباب، اقتربوا.

اقتربَ الجميعُ، وجلسُوا حولَ أبي محمود وأَبي صالح، على شكلِ حلقةٍ دائريةٍ، بدَأ أبو محمود حديثَهُ موجهًا أنظارَه لكل اتجاهٍ، يُوْلي الاهتمامَ لرفاقِه كافةً، لا يتجاهلُ أحدًا بنظراتهِ، إلى جانبه أبو صالح:

- قبلَ اثنين وعشرين عامًا يا أحبة، وعندما تمَّ اعتقالي؛ كانت زوجتي أم محمود حاملًا، عندما وضَعت حملَها أنجبَت فاطمة، وعندَ أول زيارةٍ لي حضَرت أم محمود، ووضَعت فاطمةَ أمامي على شباكِ الزيارة، وقالَت: "هذهِ ابنتنا فاطمةُ يا أبا محمود، انظُر إليها كم هيَ جميلة".

كانت تلكَ الزيارةُ مؤثرةً جدًّا، بالكادِ أخفيتُ دموعي عن أُم محمود، تمنت لي الإفراجَ العاجلَ، تمنت أَن تَتَربى فاطمة في حضنِي وعلى رُكبَتي.

في الدقائِقِ الأَخيرَةِ المتبقيةِ من الزيارَةِ أدخلتُها عندي، رُحتُ أُداعبُها، أنظرُ إلى عينيها، أَضحكُ لها، أضعُ إصبعي قربَ شَفَتيها، تحاولُ أن تلعَقَهُ، ثم تبتسمُ لي، لَم تتوقفْ يومها عن الضحكِ.

بَعدَ أَن انتهت الزيارَةُ؛ وأخذوا فاطمةَ ليُعيدوها لوالدَتِها في الجهةِ الأخرى من الشبكِ؛ شعرتُ أَنهُم انتزعوا قَلبي من صدري، عُدتُ إلى الحجرةِ بالحالَةِ نفسها التي رأَيتموني عليهَا اليومَ، في النِّهايةِ نحنُ بشرٌ مَهما كانَت قُوتُنا، ومهما بلغَ صمودُنا، نحنُ بشرٌ، نفرحُ ونبكي، لكن.. أتعلمونَ ما الذي أَبكاني اليوم؟

وجَّهَ أَبو محمود سؤالَهُ لرفاقهِ وأَضافَ:

- هذا اليَوم جاءَت ابنَتي فاطمة لزيارتي، ووضعَتْ أمامي ابنتَها، وقالَت: "لقد أنجبتُ طفلةً يا أَبي، هذِهِ حفيدتُك الأولى، قبل اثنين وعشرينَ عامًا وضَعتها والدتُها أَمامي، "هذهِ ابنتُنا يا أبا محمود"، واليومَ حضرت فاطمة إلى السجنِ ذاتهِ، والشبكِ ذاتِه، ووضعَت ابنتَها أمامي، وقالَت كما قالَت والدتُها من قبل: "هذهِ حفيدتُك الأولى يا أبي"، استطعتُ أَن أُخفي دمعَتي حتى نهايةِ الزيارَةِ لا أَكثر.

سمعَ الجميعُ حكايَةَ أبي محمود، كانَت أنظارُهم وجوارحُهم مشدودةً لحديثِه، والحجرةُ في حالةِ هدوء تامٍّ، تُلقي الإبرةَ على الأرضِ فَتسمَع لها صوتًا، توقفَ أبو محمود عن الحديثِ، ونظرَ في وجوهِ رفاقِه، فَرَأى الدموعَ تنسابُ على خدودِهم، بكى الجميعُ، كذَلكَ بكى أبو صالِح، ثم اصطَفوا جميعًا الأَسير تلوَ الآخَر يُقَبِّلونَ رأسَ شيخِ المناضلينَ أبي محمود.

العرسُ الأبيَض

لا يعرفُ كم مضَى على وجودِهِ في هذا المكانِ، عندما استَيقظَ من غيبوبَتِه القصرية، لا يعرفُ إن كانَ هذا حلمًا أَم حقيقةً، يُحاولُ إنعاشَ ذَاكرتِه للوقوفِ على ما جرى لهُ، لكن تَأثيرَ المُخدرِ في جسدِهِ لا يزالُ يسيطرُ على خلايا دِماغِه، يشعرُ بثقلٍ كبيرٍ في رأسِهِ، وخدرٍ كبيرٍ في جميعِ أنحاء جَسَدِهِ، حتى إنهُ لا يقوَى عَلى تحريكِ أَيٍّ مِن أَطرافِهِ، كَأنهُ أُصيبَ بِالشللِ، لا يُدركُ إن كانَ ما رآه أو سَمعهُ قبلَ قليلٍ حقيقَةً أَم شُبِّهَ لهُ، لا يَستطيعُ حتى اللحظةِ أَن يُمَيزَ الواقعَ من الخيالِ، رُبما تَهيَّأَ لهُ أنهُ رآها وسَمع صوتَها، ورُبما كانَت هي بالفعل.

سُرعانَ ما تَذكرَ كُل شيءٍ، وأَدرَكَ ما جرى له عندما حاولَ تحريكَ يدِهِ اليُسرى؛ فوَجدهَا مُقيدةً بأَحَد جوانبِ السريرِ، حاولَ بسطَ يدِه الأُخرى للوصولِ لكأسِ الماءِ المُقابلِ لعينيه، لكنهُ لم يستطع، أرادَ المحاولةَ مرةً أُخرى، وعندما دخلَت الممرضةُ الغرفةَ أشارَ إليها طالبًا مُساعدَتَها، تبَسمَت في وجهِهِ، وشَتمتهُ في اللغةِ العربيةِ الفُصحى، ووصَفتهُ بالمُخربِ والإرهابِي، ثم غادرَت الحجرَةَ، حيثُ كانَت بالفعل ممرضَةً عرَبيةً، قالَت ما قالت لإثباتِ ولائِها لهم.

دخل اثنان من الجنودِ حجرتَهُ، حَذروهُ من الحديثِ مع أَحَدٍ، وإلا سيواجهُ عواقبَ الأُمورِ، أشار بإصبعهِ نحوَ كَأسِ الماءِ، سَكبوا الماءَ فوقَ رأسهِ، وخرجوا من الحجرَةِ وهم يوجهونَ لهُ الشتائِم، جزمَ حينها أن كل شيءٍ حقيقة وليسَ حلمًا ولا خيالًا، ولا تهيؤات، دخلَت الحجرَةَ تبحثُ عنهُ مرة أخرى، تفحصَت الوجوهَ والأَسِرةَ، ثم غادرَت دونَ أَن تتعرفَ إليهِ، حاولَ الصرَاخَ للفتِ انتباهِها:

- أُمي، أمي! هذا أَنا!

لَكن حبالَه الصوتيةَ خانَتهُ، ولم يستطع إخراجَ صوتِه الذي ضاعَ منهُ في أثناء الغَيبوبةِ، عادَ إلى هدوئِه المُعتاد عندما دخلَ الطبيبُ حجرتهُ برفقةِ الجنديين، فحصَ له ضغطَ الدم، ثم دقات القَلبِ، فتحَ عينيهِ، فحَصهما بمصباحٍ صغيرٍ، تفحصَ بقيةَ جراحِهِ، أخذ يكتبُ ملاحظاتهِ في الملف المُعلقِ في أسفلِ السرير، فعلَ ذلكَ دونَ أن يعيرَه أي انتباهٍ، سَأل الطبيبَ بهمسٍ لا يكادُ يخرجُ من حلقِه، مُستعينًا بالإشارَة عن الوقتِ الذي مضى على وجودهِ في هذا المكانِ، فأَجابَه أنهُ هنا منذ ثَلاثَة أشهر، منذ اللحظةِ التي دخلَ بها الغيبوبَةَ.

نظرَ إلى جسدهِ فوجدَ معظمَه مُغطى بالضماداتِ، أنبوبٌ يَخرُجُ من حلقِه، أنبوبٌ آخر يَخرجُ مِن خاصِرتِه اليُمنى، كَأن الجسَد مر بحادِثِ سيرٍ قطعَ أوصالَهُ، أسندَ رأسَه إلى الوسادةِ، نظرَ إلى سقفِ الغرفةِ، ثم جالَ بنظرِه وفكرِه إلى ماضٍ كان ولا زالَ يعرفُه جيدًا،

وإلى مستقبلٍ كانَ قبل أشهر يَبتسمُ لهُ، عندَما اصطدمَ بجمالِها أولَ مرةٍ في عرسِ أحد أقاربِه، كانَت نجمةً لامعةً في سَماءِ العُرسِ، تسرقُ الأضواءَ من جيبِ الحِسانِ، قوامُها المَمشوقُ يُعانقُ السحابَ، وشعرُها الذهبِي المُنسابُ أسفلَ ظهرِها يُسافرُ مع الريحِ، يُسابقُ المساءَ، عَيناها نَجمَتانِ تذوبُ فيها فيروز الشطآن، وجهُها شَمسٌ في أَحد صباحاتِ آذار، أبهَرَت عَينَيهِ طلتُها الساحرَةُ، اقتربَ منها، ابْتَسَمَ لها، صافَحَها، رَحبَ بها بِحرارةٍ بالغةٍ ثُم قالَ:

– مرَّ وقتٌ طويلٌ لَم أَرَكِ فيهِ، لقَد ازدَدتِ بهاءً وجَمالًا.

بادَلتهُ الحفاوةَ والترحيبَ، وشكرتهُ على إِطرائِهِ:

– شكرًا لك، هذا من ذَوقِكَ اللطيفِ.

سَأَلتهُ عن أحوالِهِ، عن عملِه، عَن مشاريعِه المُستقبلية، تبادَلَا حديثًا قصيرًا، وفي زحمةِ الأضواءِ شعرَ أَن شيئًا يجذبُهُ نحوَها، كَأنهُ يراها أولَ مرةٍ في حياتِهِ، خاصةً بعدَ أَن لاحظَ العيونَ التي تُلاحقُ ذهابَها وإِيابَها، تمنى لَو استطاعَ أَن يحتكرَ هذا الجَمالَ لعَينيهِ وحده، زادَتهُ ابتِسامتُها إقدامًا وجُرأَةً، تَقدمَ نحوَها مَرةً أُخرى، ثم همَسَ في أُذنِها:

– أتعلَمينَ يا بُشرى؛ أنتِ جميلةٌ جدًّا جدًّا، وسَتكونين أجملَ وأجملَ لو أخفيتِ هذَا الجمالَ لِمَن يَستحقهُ.

غادَرتهُ دونَ أن تُعلقَ على كلامِه، لكن الفرحةَ والخجلَ كانا يعتليان صهوةَ وجنَتَيها.

في اليومِ التالي؛ كانَت تقفُ في طريقِ رحلتِهِ إلى العملِ، أشارَت إليهِ، فَأَوقفَ سيارَتَه، وأخرجَ رأسَهُ من شُباكِها، كانت المُفاجَأةُ الكُبرى أن تلكَ الفَتاةَ ذات الحجابِ الأَحمَر ما هي إلا بُشرى، وقبلَ أَن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ قالَت:

– هَل من الممكنِ أَن توصلَني إلى جَامعَةِ بيرزيت يا أُستَاذ خَالِد؟

ابتَسَم لها، ثم فتحَ بابَ السيارَةِ وهو يقولُ:

– بِكُل سرورٍ، تَفضلي، هي في طَريقي.

ثم سارا باتجاهِ رَام الله. لَم يَكُن خالد أَقَلَّ من بُشرى في الوسامةِ والجمالِ، كانَت جدتُه تداعبُه قائلَةً:

– أنت مثل البنت الغاوية.

لذلكَ كانَ خالد مَحطَّ أَنظارِ بناتِ قريَتِه، كانَ فارعَ الطولِ، مفتولَ العضَلاتِ، ضخمَ الجثةِ، وجهُهُ كالبَدرِ، شَعرُه الأسودُ الحَريريُّ يُغطي منكَبَيه، إضافةً إلى حُسنِ خلقِه وأخلاقِهِ وثقَافَته العَالِيَة.

انقَضَى يومٌ كانَ حافلًا بالحيويةِ والنشاطِ، نظرَ إلى ساعَتِه، كانت الثالثَةَ عصرًا، هاتَفها، وسَألَها مُداعبًا إن كانَت بحاجةٍ إلى سائِقِ تاكسي يُوصلُها إلى القريةِ، وصَلَت ضحكتُها أُذنَهُ قبلَ إجابَتِها، أطربَهُ صَوتُها:

– إن كانَ السائِقُ هوَ أنتَ فليسَ لدَيَّ مانعٌ.

– إِذَن أَنا قادِم.

كانَت بانتِظارِه أَمامَ بابِ الجامعةِ، أَقلَّها وسارا نحوَ القريةِ.

مضَت الأَيامُ مُسرعةً، كانا يَلتقيانِ صَباحًا، يَصحَبُها في طرِيقِه إِلى العملِ، ويَلتقيان مساءً في أَثناء رِحلَةِ العودَةِ، لَم يُكن لِأحدٍ أَن يُنكرَ عليهِما ذلكَ لِسَبَبين؛ الأول أنهما أقرباء من عائِلَةٍ واحدةٍ، والثاني أَن هُناكَ حُبًّا وُلدَ في فضاءِ ليلَةِ عرسٍ صيفيةٍ، وبَدَأ يكبرُ.

في ليلةٍ عاصفةٍ بالحُب والمطر؛ أرسلَ لها أنفاسَهُ وقلبَه في أمواجِ الهاتفِ، قالَ لها:

- أُحبكِ.

أجابَت:

- وأنا أيضًا.

قالَ لها:

- بل أعشَقُكِ.

قالَت:

- أَنا أكثَر.

أَصبحَا سَمَكَتين لا يَستطيعان العيشَ دونَ ماء، عندما لا يكونان في ظِلِّ وردةٍ بنفسجيةٍ يجمعُهما أثيرُ الهاتفِ، حتى فاضَ العشقُ، وأغرقَ مرافِئَها السمرَاء.

بَعد أشهرٍ قليلةٍ كانا يُحضِّران لعُرسِهما القادمِ، لم يَصبِرا على البُعدِ أَكثرَ من ذَلكَ، اتفقَا أَن يستَظلا برَبيعِ نيسان، وعبيرِ شَقائِق النعمان،

كانَا يُسابقانِ الزمنَ لصبغِ أَحلامِهما بالبَنفسَج، ولِيَجتَمِعَا تحتَ سقفِ عشقِهما المُقدَّسِ، إلاَ أَن الفرحةَ بتوقيتِ الزمنِ الفلسطيني الحزينِ قصيرَةٌ جدًّا ومَسروقةٌ.

ذاتَ صباحٍ عاصفٍ؛ غادرَ خالِد منزلَ خطيبَتِهِ بُشرى نحوَ بلدَةِ الرام قَضاء القُدسِ، أَخبرَه أَحدُ أصدقائِه عَن بعضِ الأجهزةِ الكَهربائِيةِ التي لا تُوجدُ إلا في المدينةِ المُقدسَة، لا تزالُ صورتُها محفورةً في جدرانِ ذاكِرتِهِ، كأنها كانت تَستَشعرُ القدرَ ذلكَ الصباحَ، وهي تُلَوِّحُ لهُ بكفِّها الناعمةِ من خلفِ شُباكِ غُرفَتِها عندما غادَرَ.

كانَ وجهُهَا وكَفها آخرَ ما رَأى وهما يتضاءَلانِ شيئًا فَشيئًا في مرآةِ السيارَةِ وهو يَبتَعدُ عن المنزِلِ.

وصلَ خالد ضاحيَة البريدِ، فَوجدَ المدينَةَ ترتدي عرسَها الأبيَضَ، تُعانقُ فرحَةَ الصغارِ وآمالَ الكبارِ، على مدخلِ إحدى الأسواقِ استوقَفَهُ حاجزٌ عسكَرِيّ، أمرَهُ الجنديُّ بالخروجِ من السيارَةِ، كانَ هناكَ عددٌ من الشبانِ قَد سبقُوهُ إلى حفلَةِ الإذلالِ هذِهِ، صادَروا بطاقَتهُ الشخصيةَ، صَلبوهُ على الجدارِ المُقابلِ، أَجبَروا الجميعَ على خلعِ ملابِسهم، أشفَوا ظمَأَ سادِيَّتِهم، اعتَدوا عليهم بالضربِ، ثم أَمَروهُم بارتِداءِ ملابِسهم والمُغادَرَة، طلبَ منهُم بطاقَتَه الشخصيةَ، فرَفضوا إعادتها له، اعتَدوا عليهِ مرةً أُخرى، شَتَموا أُمهُ ومحارِمَه، فلَم يَحتمل الإهانَةَ، بلغَ الغضبُ أطرافَ الرأسِ، أصبَحَ الثلجُ رمادَ

بركانٍ، اشتَعَلَت النارُ في ثوبِ الشتاءِ، دخلَ السوقَ متوجهًا إلى أقربِ حانوتٍ للأدواتِ المنزلِيةِ، اشترَى سِكِّينَين وخرَج، حاولَ بعضُ التجارِ تهدِئَتَهُ، إلا أَن الروحَ الفلسطينيةَ تتقبلُ كُل شيءٍ إلا الإهانةَ والذلَّ والعارَ، رُبما يَتقبلُ القتلَ، ربما يَتقبلُ هدمَ بيتِه، ربما يتقبلُ السجنَ، ربما يتقبلُ مصادرَةَ أموالِه، لكنه لا يَتقبلُ أبدًا أَن يَمَس أحدٌ عرضَهُ، أو يُذَل أَو يُهان.

أَخفى السِّكينَتَين تحتَ معطفِهِ الشتوي الطَّويلِ، عادَ إليهِم مرةً أُخرى، كانَت أمامَهُ صورَةُ بُشرى حب حياتِه، وهيَ تُلوحُ له بكفِّها هذا الصباحَ، كذَلكَ كانَ أمامَهُ صورَةُ العرسِ وربيع نيسان، لكن صورَةَ الإذلالِ سيطَرَت على كيانِه.

شتائِمُهم لأُمـهِ وعرضِه تطرقُ بـابَ أُذنيهِ، ضحكاتُهم واستهزاؤُهم بهِ وهم يجبرونَهُ على خلعِ ملابسِه، صورٌ ترفضُ مغادرَةَ ناظرَيهِ، اقتربَ من سائقِ الجيب، وأخبرَهُ أنهُ تركَ بطاقَتَه الشخصيةَ لدَيهِ قبلَ قليلٍ، بدَأ يتفحصُ كومةً من بطاقاتِ الهوية المُصادَرة، لم يَجِد بطاقَةَ خالِد، سَألهُ عن وصفِ الجُندي الذي صادرَ بطاقَتَهُ، أجابَه خالد:

– إنه أَنتَ.

هنا فتَحَ الجُندِي بابَ الجيب العَسكَري، أراد الترجلَ منهُ، وما إن وضَعَ إحدى قَدَميهِ على الأَرضِ حتى عاجلَهُ بطعنةِ سكينٍ أسقَطتهُ

أرضًا، حاولَ الجندي الآخَر الخروجَ من البابِ الخلفِي للجيب، إلا أن خالدًا كان لهُ بالمرصادِ، ووجهَ لهُ طعنةً أُخرى، أخذ الجنديُّ يجري أَمامَه بصورةٍ دائريةٍ حولَ الجيب، وخالد يُطاردُه للنيلِ منهُ، والجنديُّ يجري عاجزًا حتى عن استِخدامِ سِلاحِه.

خرَجت مجَندةٌ من الجيب، حاولَت إطلاقَ النارِ عليهِ، لكنهُ حاوَلَ أَن يتَحاشاها لأنهُ لَم يعتَد مُهاجمَةَ النساء، تَسمرَت في مكانِها عندما رَأت سكينَه المُشرعَة، عجزَت هي الأُخرى عن استعمالِ سِلاحِها، في هذه الأثناء؛ وصَلَت دوريةٌ أُخرى إلى المكانِ، بعدَ أن سمعَت صوتَ إطلاقِ الرصاصِ الذي أطلقَهُ سائقُ الجيب المُلقَى على الأرضِ سابِحًا بدَمِهِ.

وما هي إلا لحظَات حتى كان رصاصُهم يُمزقُ جسَدَهُ وأَطرافَه، حاولَ أن يستديرَ نحوهم، إلا أن ساقَيه اللتين مزقَهُما الرصاصُ خذَلتاه، خارَت قُواهُ، سقَط على الأرضِ، صورةُ بشرى وهي تُلوِّحُ لهُ بِكفِّها لا تفارقُ خلدَه، ابتسَمَ لها، بَدَأ رأسُه يدورُ، ولا يرى حولَه إلا البَياض يَدورُ حولَ عَينيه، ثم سقَطَ مغشيًّا عليهِ.

إذن هو يستيقظُ اليومَ في موعدِ عرسِهِ، سَألَ الطبيبَ عن تاريخِ اليومِ بعدَ أن أدرَكَ أنه في ذلكَ المكانِ منذ ثلاثَةِ أشهر، أخبرَه أن اليومَ هو الثاني والعشرون من نيسان، نعم؛ إنهُ موعدُ العرسِ، الذي أصبَحَ يفصلُهُ عنه جراحٌ وقيودٌ، وسجنٌ ينتظرُ ابتلاعَه.

ها هي العجوزُ تدخلُ الغرفةَ مرةً أُخرى برفقةِ أَحد الجنودِ، ذَهبَت تتفحصُ الوجوهَ والأَسِرَّةَ مرةً أُخرى، قبلَ أَن يُشيرَ الجنديُّ إلى سريرِهِ، لَم تُصدقْ أَنهُ هوَ.

– هذا ليسَ ولَدي، لقد تَفَحصْتُهُ قبلَ قليلٍ.

وجَّهت حديثَها للجندِي الذي أَكَّدَ لها أنهُ هو ولَدُها.

– ليسَ لدينا مُخربٌ جريحٌ سواهُ.

أَجابَها ثم أضافَ:

– لديكِ عشرُ دقائق لرُؤيَتِه، لقد انتهَى وقتُ تصريحِ الزيارَةِ.

أُم خالد عجوزٌ ستينيةٌ، على الرغمِ من سنهَا وسِنين الوَجَعِ والنضالِ؛ إلا أَنها لَم تتعَبْ من مُقارَعةِ أولئِكَ الأغرابِ، كانَ والدُها مُناضِلًا، قضى نصفَ عمرِهِ في السجونِ، وشقيقُ زوجِها كانَ من كبارِ المُناضِلينَ أيضًا، تعرَّفت إلى الألمِ والفراقِ من سنين الصبا، ها هوَ فلذةُ كبِدِها يُكملُ مسيرَةَ الآباءِ والأَجدادِ، تُرى كم جيلًا نحتاجُ لنَتَخلصَ مِن هذا الوَباءِ، وهؤلاء المُجرمين.

اقتربَت منهُ، جلسَت على طرفِ السريرِ تتَأملُ ذَلكَ الشابَّ الوسيمَ العملاقَ، الذي أصبَح أمامَها كومةَ عظامٍ.

منذُ ثلاثَةِ أشهر وهيَ تبحثُ عنهُ في السجونِ والمُستَشفياتِ، تتقدمُ بطَلب تصارِيحَ لزيارَته دونَ جدوى، حتى علمت قبلَ أسبوعين أنهُ في مستشفى (هداسا عين كارم)، استَطاعَ أَحدُ المُحامين

استصدارَ تصريحٍ لزيارَته مدته عشر ساعاتٍ، إلا أن الوقتَ ضاعَ هذا اليومَ وهي تبحثُ عنه بينَ أَسِرَّةِ المُستشفى، في ظل رفضِ الجنودِ مساعدتَها للوصولِ إليهِ؛ اقترَبَت من جراحِهِ وقبَّلَتْها، مسَّدَتْ رأسَه براحةِ يَديها، مسَحت عرقًا منسابًا على جبينِه اختلَطَ بدموعِ عينيهِ، بكى خجلًا مِن دمعِ أُمهِ، شَدت من أَزرِه، ذكَّرتهُ بجدهِ البَطلِ الذي قهَرَ السجنَ والمُحتلَّ، ذكرتهُ بعمهِ الذي قضى مناضلًا ومُقاتِلًا في سبيلِ كرامةِ الوطنِ.

- كُن قويًّا يا بُني، لا تَدعهُم يَرونَ دمعَتَك!

حاولَ الوصولَ إلى قَدمَيها ليُقَبلَها، لكن قيودَهُ أسقطَتهُ في حجرِها، رفَعَتْ رَأسَهُ، وقبَّلَته، ثم قالَت:

- أريدُ أَن تكونَ ابنَ أبيكَ وجدكَ وعَمكَ، لا تلينُ ولا تَنكسرُ.

كفكَفَ دمعَهُ، قَبَّلَ رَأسَها وكفَّيها قبلَ أَن يدخلَ أَحدُ الجنودِ إلى الحجرَةِ، مُعلنًا انتهاءَ الزيارَةِ، طالِبًا منها المُغادَرَةَ، ثم طلبَ من خالد الاستعدادَ للرحيلِ إلى ما يُسَمى بمُستَشفى سجنِ الرملة، بعد أشهرٍ حُكِم على خالد بسنواتٍ طوالٍ داخل السجنِ، فيما بعد ذهبَت بُشرى تبحثُ عن حياةٍ أخرى، تزوجَتْ وأنجبَت أطْفالًا، وأصبحَتْ شيئًا من الذِّكرى.

الروحُ الغائِبَة

ثائِر لا يُصَدقُ ما يَجري الآن، عَدَّادُ الدمِ بارتفاعٍ، رقمٌ يُضافُ إلى رقمٍ، فيرتَفع العدادُ، يَبكي الناسُ بصَمتٍ، أصابَهم الذهولُ واللامبالاة في آنٍ واحدٍ، يتساءَلُ ثائر، يجلدُ نفسَهُ:

– هل أصبَحنا مجردَ أرقامٍ في سِجلاتِ عجزِنا؟ هل يُعقلُ أَن يصلَ انحِطاطُ أرواحِنا إلى هذا الحَدِّ؟ بالأمسِ كنا نقيمُ الدنيا ونقعِدُها إذا ارتَقى منا شَهيدٌ واحدٌ.. كُنا نحفظُ اسمَه عن ظهرِ قلبٍ.. نعرفُ عنهُ كل شيءٍ.. نعرفُ أَدقَّ التفاصيل عن ربيع عمرِه الذي أجبرتهُ بنادقُ القتلةِ على الرحيلِ عنه مُبكرًا.

استغرَبَ هذا السكوتَ أمامَ هولِ المحرَقةِ التي تحدثُ الآنَ، الناسُ ذات الناسِ، يَأكلونَ ويَشربون، يُمارسونَ أعمالَهم بشكلٍ طبيعِي كأَن شيئًا لَم يَكُن، لَم تُغلِق المدنُ أبوابَها كما في الماضي، لم تُخرِج الأرضُ أثقالَهَا ولَهيبَها كما في الأَمسِ، شموعٌ تُضاءُ هنا وهُناكَ، كأننا نتضامنُ مع شعبٍ آخر في جنوبِ أفريقيا، لم يستطِعْ ثائِر أن يفسرَ ما يحدثُ، أفواهُ المسؤولين الكاذبةُ تستنكرُ المجزرةَ أمام الشاشاتِ فقط، تقولُ شيئًا وتفعلُ شيئًا آخَر وراءَ الكواليس، بينما طائِراتُ الموتِ

تُواصلُ حصدَ أحلامِ الصغارِ والكبار، تتَبعثرُ أشلاءُ الضحَايا في بثٍّ حيٍّ ومباشِرٍ، يُشاهِدُ العالمُ جثثَ الصغارِ كأنهُ يتابعُ فيلمًا من أفلام (الأَكشن) الهوليودية، يتجاهَلونَ عيونَ (لؤي)، ويهربونَ من ساقَيِّ (جَميلَة)، قادَتُنا يُرخصون دمَنا الذي يُراقُ في الشوارِعِ كَأَضاحي العيدِ، وروحُ التضامُنِ بينَ أبنَاءِ الدمِ الواحدِ والحلمِ الواحدِ شُيِّعَت إلى مثواها الأَخيرِ أَمامَ هذا المشهدِ الدامي المُثيرِ للغَضَبِ.

ثائِر الذي عاصَرَ انتفاضَةَ الحجارةِ طفلًا، يَستَذكرُ أحدَ مشاهد التضامنِ الغريبَةِ التي عايَشَها بنفسِهِ ذلكَ النهار من العامِ الثالثِ للانتِفاضَةِ، كانَ صباحًا ربيعيًّا مَشحونًا بالدماءِ والتوترِ عندَما التَقَى ثائِر صديقَيه نِضالًا وجِهادًا وسطَ القريَةِ، سَأَلاهُ يومَها:

– هلْ علمتَ بما حدَثَ هذَا اليوم؟

أَجابَهما ثائر أَنه غادرَ المَنزلَ مُبكرًا، ولَم يَتَسَنَّ لهُ سماعُ نشرَةِ الأَخبارِ بعد، أَخبَرَهُ نِضال أَن العَدوَّ ارتكبَ مجزَرَةً صباحَ هذا اليومِ، على امتدادِ الوطنِ المُحتَل، أضافَ جهاد أنهُ سمعَ من المذياعِ مُباشَرَةً أن هناكَ شهيدًا في غزة، وشهيدًا في القدسِ، وشَهيدًا في رام الله.

ذُهِلَ ثائِر يومَها لهَولِ ما سَمع:

– هذهِ مجزَرة! ثلاثَة شُهداء في يومٍ واحدٍ! إنها مجزرَةٌ يا شباب! إِنهم يستَهينونَ بدَمِنا.

علّقَ ثائر، ثم أضافَ:

– هَذا اليوم؛ يجبُ أن يَشتعلَ الوطنُ بأسرِه؛ حَتى يَعلَموا أَننا شَعبٌ واحِدٌ.

يومَها توَجه ثلاثَتُهم إلى مركزِ القَريةِ، دخلَ ثائر المسجدَ، ثم قَرَأَ بيانًا ثوريًّا على مسامعِ أَهالي القَريَةِ، عبرَ مُكبراتِ الصوتِ، وما إن ذَكرَ نبَأَ المجزرَةِ حتى خرَجت الجُموعُ عَن بكرةِ أبيهَا إلى مَركَزِ القريَةِ، ثُم تَوَجهوا بمَسيرَةٍ حاشدةٍ نحوَ الشارعِ الرئيسِ العامِّ، حيثُ اشتَعلَت القريَةُ بالغَضبِ، ودارَت مواجَهاتٌ بينَ الأَهالي والمُحتلين، يومَها بَدأَت الأنباءُ تتوالى، الوطنُ بِأَسرِهِ يَنتفضُ انتِقامًا لِشُهداءِ المَجزَرَةِ؛ نابلس، جنين، طولكرم، رام الله، الخليل، القُدس، قَلقيلية، غزة من الشمالِ إلى الجنوب، مسيرات في فلسطين المحتلةِ عام 48 تتضامنُ مع أبناءِ شَعبِها، الوطنُ بأسرِهِ يشتعلُ، العالمُ يستنكرُ، يُطالبُ الاحتلالَ باحترامِ القانونِ الدولي، يسخرُ الأخيرُ ويزدادُ قمعًا.

ما زالَ ثائر يسيرُ في الشارعِ على غيرِ هُدى، يستذكرُ روحَ التضامنِ في الأيامِ الخوالي، والغائبَة الآن، مَناظرُ الدماءِ وأشْلاء الشهَداءِ تتزاحَمُ أَمامَ عينَيهِ، لَم يقطعْ حبلَ ذاكرةِ حُزنِهِ سوى صاحبيه جهاد ونِضال وهما يسألان إن كانَ جدَّ شيءٌ على أَخبارِ المحرقَةِ الجاريَةِ الآن، يخنقُهُ رمادُ السؤالِ، ثم يبتسمُ للماضي كأَن التاريخَ يعيدُ نَفسَه، لكن الزمنَ تغيرَ، النفوسُ تغيرت، القيمُ تغيرَت، قيمةُ الإنسانِ أيضًا تغيرت.

قبل عشرينَ عامًا التقى ثائِر مع صاحِبَيهِ في هذا المَكانِ؛ ليَعلَم منهم أخبارَ مجزرَةٍ ما؛ راحَ ضحيتها ثلاثَةُ شهداء، واليومَ يلتقونَ في المكانِ نفسِه، يَتناقَلون أخبارَ مذبحةٍ ما زالَت تحدثُ، وتُخضبُ وجهَ غزةَ بالدماء، ضحاياها تجاوزوا الألفَ شهيدٍ، الكُل يبكي ويَتوسلُ إلى الله بالدعاء، لكن ثائرًا وصاحبيهِ ما عادوا أبناءَ العشرينَ عامًا ليُشعلوا قريَتَهم بالنارِ والثورةِ، توجهَ ثائِر وجهاد ونِضال إلى المسجدِ لِأداء صَلاةِ العَصرِ، وعلى الرغم من سِنيِّ العمرِ الراحلةِ إلا أن روحَ الثورةِ ما تزالُ تشتعلُ في عروقِهم، وحينَ دخلوا ساحةَ المَسجدِ كانَ فوقَ سطحِه ثَلاثَةُ مُلَثَّمين في العِشرين من أعمارِهم، يَدْعونَ الناسَ للتوَجهِ للشارعِ العام؛ لإشعالِ الأرضِ تحتَ أقدامِ المُحتَلين؛ ثَأرًا للمجزرَةِ التي تُرتَكبُ في حقِّ أهلِنا في غَزة، تعرفَ ثائِر إلى أَحدِ المُلثّمين، عرفَهُ حقَّ المعرفةِ، وكذلكَ نِضَال، تَعَرفَ إلى أحدهم بشكلٍ لا لبسَ فيهِ، وكذلك جهاد؛ لم تكُن تنقصهُ الفراسَةُ ليتعرفَ إلى ذلكَ المُلثم، نظروا إلى وجوهِ بعضِهم بعضًا، ابتَسموا، ثم أدرَكوا أَن الثورَةَ أيضًا يرثُهَا الأَبناءُ عن الآباء.

حَقٌّ تاريخِيٌّ

ضَجَّتْ قاعةُ المحكمةِ بالضحكِ والاستهزاءِ، القاضي مشدوهٌ ومصدومٌ في آنٍ واحدٍ، هذه أغربُ قضيةٍ تقعُ بينَ يديهِ منذُ ثلاثينَ عامًا، في البدايَةِ أَرادَ الاعتذارَ عن مُتابعَةِ هذهِ القضية، لَكن فُضولَه غلبَه في مُحاولةٍ منهُ لفهمِ بواطن الأمورِ، أرادَ معرفَةَ السببِ الحقيقي لدوَافِعِ ادعاءِ هذَين الرجُلَين.

وقفَ الدفاعُ أَمامَ هيئَةِ المحكمةِ يُفَندُ ادعاءاتِ الرجُلَين، وطلب من هيئةِ المحكمةِ عرضَ المدعين علَى طبيبٍ نفسِيٍّ:

- حضرة القَاضي، المحكَمة الموَقَّرة؛ أُطالبُ بعرضِ هذين الرجلين على طبيبٍ نفسيٍّ لأنني أعتقِدُ أَن هذين الرجُلَين يُعانيان من مرضٍ نفسيٍّ خطيرٍ، فلا يُعقلُ يا سيادَةَ القاضي أَن يَقومَ إنسَانٌ سَويٌّ برفعِ دعوى قضائيَّةٍ من هذَا النوعِ من القضايا، على أكبر مُؤسسةٍ علميةٍ فضائيةٍ على وجهِ الكرةِ الأرضيةِ، بالتأكيدِ يا سيادَةَ القاضي هَؤُلاء مجانِين!

اعترَضَ مُحامي الرجلين على كلامِ الدفاعِ، وعدَّ هذا مساسًا بكرامَةِ مُوَكليهِ:

– حضرة القاضي، المحكَمة الموقرَة؛ لقد قامَ موكلايَ بتقديمِ كلِّ البياناتِ والسنداتِ التي تُثبتُ صحةَ ادعائِهما، وللتأكيد على صحةِ ادعائِنا؛ أريدُ أن أضعَ بين يدي المحكمةِ هذا الملفَّ، الذي يحتوي على حججٍ وأوراق ملكيةٍ تعودُ إلى ما قبلَ مائةِ عامٍ، ورثَها موكلايَ أبًا عن جد، تُثبتُ ملكيتهما للأرضِ المتنازَع عليهَا.

بدا القاضي مشدوهًا وحائِرًا لا يقوَى على فعلِ شيءٍ، وهو يرى أشهرَ وأقوَى محامٍ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ يترافعُ عن هذين البدويين:

– هل أَنتَ جادٌّ فيما تقولُ مستر سميث؟ هل أَنتَ في كاملِ قواكَ العقليةِ؟

– أنا هنا أؤدي واجبي بمهنيَّةٍ وإخلاصٍ كما تتطلبُ مني أخلاقُ مهنتي، فلا أستطيعُ التخلي عن إنسانٍ وكلني لأطالبَ له بحقِّه من أي جهةٍ كانَت، أنا مُحامٍ وأقومُ بعملي.

– مستر سميث؛ موكلاك يدعيان أنهما يمتَلكانِ نصفَ القمرِ، ويُطالبان وكالَةَ (ناسا)؛ محطة الفَضاء الدولية بإزالةِ معداتِها من أرضِهم، أو التعويضِ؛ لأنها بُنِيَت في الجزءِ التابعِ لهما، هل هذَا الكلامُ يدخلُ العقلَ مستر سميث؟ أم أنكَ جُنِنتَ مثلهم؟

– سيدي القاضي؛ أنا أصدقُ موَكلَيَّ، وكما أسلفتُ فإنه من واجبي المطالبَة بحقوقِ موكلَيَّ، أنا محامٍ!

بدأ القاضي يخرجُ عن طـورِهِ، يضربُ كفًّا بكفٍّ، أصوات الجمهورِ في قاعَةِ المحكمةِ لا تخلو من السخريَةِ والاستغرابِ، محامي وكالةِ (ناسا) يقفُ أمامَ القاضي، يطلبُ مدةَ استراحةٍ من هيئةِ المحكمةِ، لعله ينجحُ في إقناعِ المُدعين بالتراجعِ عن دعواهُما، أو الوُصول لصيغةٍ مُشتركةٍ تُرضي الطرفَين.

وافقَ القاضي، وأَمرَ برفعِ الجلسةِ لثلاث ساعاتٍ، بعدَ أن حذرَ المُدَّعين بأنهُ سوفَ يُرسلُهم إلى مستشفَى الأَمراضِ العقليةِ إن لَمَ يُثبِتوا صِحةَ ادعائِهم، ثم لملَمَ أوراقَه وخرجَ نحو مكتَبِهِ.

في الصفوفِ الأُولى من قاعةِ المحكمةِ؛ جلسَ الشقيقان (مساعد)، و(مسعود ولد سلطان)؛ اللذان حضَرا من سَلطنةِ عمان إلى الولاياتِ المُتحدةِ الأَمريكيَّةِ قبلَ ثلاثَة أشهر، وقَد عزما على شيءٍ في نفسيهما، وما إن حَطت أقدامُهما في أمريكا حتى سارعَا إلى استئجارِ خدماتِ أكبر وأَشهَر محامٍ في البلادِ، كانَ (مساعد) يعملُ مُهندسًا في إِحدى شَركاتِ النفطِ في بلادِه، بعدَ أَن تخرَّجَ في جامعةِ (كامبردج) البريطانية، أما (مسعود) فكانَ يعملُ مديرًا لبَنكِ عمان الدوليِّ، بعدَ أَن تخرجَ مِن قسمِ العلومِ الماليةِ والمَصرفيةِ في جامعةِ (إكسفورد) البريطانِية، ذاتَ يومٍ، ودونَ مقَدماتٍ، بعد إجازةٍ صيفيةٍ في بيروت كادت تودي بحياتِهما؛ عندما استهدفَ قصفٌ صهيوني مبنى كانا يَمُران من أمامِهِ؛ فقررَا على إثر الحادثِ السفرَ إلى الولاياتِ المتحدةِ

الأمريكيةِ، بعد ثلاثة أشهرٍ قاما برفعِ قضيةِ إثبات (ملكية أرض) نصف كَوكبِ القمرِ، وطالبَا من المحكمةِ إلزامَ (ناسا) بإزالَةِ محطةِ الفضاء الدوليةِ، المقامةِ فوقَ أراضيهما في الجزءِ التابعِ لهما من القمرِ، أو التعويض، وها هما اليومَ ينتظران جلسَة النطقِ بالحكمِ، منذ ثلاثة أشهرٍ والإعلام الأمريكي يُغطي هذه القضية بشيءٍ من السخريةِ والتهكمِ، يسلطُ الضوءَ على عرَبِيَّين غبِيَّين، يدَّعِيان ملكيتَهما للقمرِ.

تقدمَ محامي (ناسا) من السيدينِ مساعد ومسعود في محاولةٍ يائسةٍ لثنيِهما عن الاستمرارِ في هذه المهْزَلةِ حسب تعبيرِه، إلا إن كُل محاولاتِه باءَت بالفشلِ.

– يا سيد مُساعد، يا سَيد مَسعود؛ أَنا لا أَستَطيعُ فهمَ سِر إصرارِكَ على الاستمرارِ في هذِه المهزلَةِ، أَخبراني؛ هل تريدان مالًا مقَابلَ إيقافِ هذهِ (المهزلَةِ)؟ معلُوماتي تقولُ إنكم أَغنياء جدًّا، ولستُما في حاجَةٍ إلى الأموالِ، أَتمنى لو تُخبراني ماذَا ستستفيدانِ من إصرارِكما على امتلاكِ نصفِ القمرِ، أيها السادَة؛ الناسُ خارجَ هذِه القاعةِ مقتنعونَ تمامَ الاقتناعِ أنكم مجانين، هل ترغبون أن تَكونوا مجَانين؟

ثم وجهَ حديثَه إلى (مستر سميث):

– أقنعهُم بالتراجعِ مستر سميث، هل تعجبُكَ هذِهِ المهزَلَةُ؟

– مستر جون، إنهم أمامك إن استطعتَ إقناعَهم، تفضلْ.. أنا لا أُمانِع! هذان الرجلان موكِّلايَ، أنا أصدقُهما، وإن أرادا التراجُعَ

أَقبلُ منهما ذَلِكَ.

وهُنا تدخلَ مسعود حاسمًا الأمرَ:

– نحنُ نريدُ حقَّنا يا مستر جون، ولن نتراجعَ، هذهِ أرضُنا، ووكالتُكُم شَيدَت تلكَ المحطةَ فوقَ أرضِنا، وحَقُّنا في القمرِ يعتمدُ على الحقِّ التاريخي، والوَثائقُ تُثبتُ ذَلِكَ.

– هذا هراء.. هَذا جُنون! أي حق وأي تاريخ؟! أَنتم مجانين! إذن لقاؤُنَا في المَحكمَةِ.

ثُم خرَج المستر (جون) من قاعةِ الاستراحةِ غاضِبًا.

بعدَ دقائِقَ كانَت قاعَةُ المحكمةِ تعُج بالصحَافَةِ ورِجالِ الإعلامِ، وكذَلكَ بالمُواطِنين. بعد لحظاتٍ أَعلَنَ القَاضي انعقَادَ المحكمةِ، وطلبَ من محامي المُدَّعين أَن يعرضَ وثائقَهُ ويُقَدمَ شهودَهُ أَمامَ المحكَمةِ.

وقفَ السيد (سميث)، وأَلقى مُرافَعَةً طويلَةً أَمامَ المحكمةِ، أَكَّدَ فيها حقَّ مُوَكليهِ في أرضِ القَمرِ، ثُم قامَ بتقديم وَثائِق وعُقود ملكية مُسجلةٍ باسمِ الشقيقَين، تُثبتُ أَنهما يَمتلكانِ أَرضًا ما على سطحِ القمرِ، سَلَّمَها للقَاضي وجَلَس.

بعدَها وقفَ (مستر جون)، محامي (ناسا)، وبَدَأَ بتَفنيدِ مُرافَعَةِ سابِقِهِ، طالبًا مِن هَيئَةِ المحكمةِ ردَّ الدعوى المرفوعَة ضِدَّ مُؤَسسَتِه، وإرسالَ المُدَّعين إِلى مستَشفَى الأَمراضِ العَقلِيةِ.

بعدَ أَن أَنهَى المُدعي والدفاعُ مرافعَتيهما؛ نَظرَ القاضي إِلى مُساعد ومسعود، ثُم سَأَلَهُما:

– هَل لا زلتُما مُصِرَّيْن على ادّعائِكما؟ وهل لدى أَحدِكُما شيءٌ ليَقولَه؟

رفَعَ مُساعد يدَهُ طالبًا الحَق في الكلامِ:

– أَنا لَديَّ ما أقولُهُ يا حَضرَة القَاضي..

ثُم تقدمَ إِلى منصةِ الشهودِ، وبدأَ حديثَه:

– حضرَة القاضي، المَحكَمة الموقرة، رجال الصَّحافَة، الجُمهور الكَريم؛ لقَد استغربَ الجميعُ مِن دعوتِنا القضائيةِ هذِهِ ضد وكالَةِ ناسا، بل إِن البعضَ اتهَمَنا بالغباءِ والجنونِ، ولَم يُصَدِّقْ أَبدًا امتلاكَنا لِأَرضِ القَمَرِ، نعَم أَنا مَعكُم في ذَلِكَ، إِنهُ أمرٌ لا يُصَدقُ، وغيرُ معقولٍ، لكنني أُريدُ أن أَسأَلكم هُنا سؤالًا واحِدًا؛ بما أنكُم لَم تُصدقوا هُراءَ امتِلاكِنا للقمر، وحَقنا التاريخِي بأَرضِهِ؛ لماذا تُكذبونَنا بينَما تُصَدقون ما يُسمى (إِسرائيل)، بادِّعائِها ملكية أَرضِ فِلَسطين العرَبية؛ بحجةِ الحَق التاريخي، حضرة القاضي، المَحكَمَة المُوقرة؛ إِذا كانَ هُناكَ حقٌّ تاريخي لهذا الكيانِ الغاصبِ في أرضِنا العربيةِ الفِلَسطينية؛ فإن لنا أيضًا الحقَّ التاريخي في القَمر، تُصَدقونَ اللصوصَ المُحتَلين، وتَدعمونَهم في احتلالِهم، تحتَ مُسَمى الحَق التاريخي، ثُم ترفضُونَ تصديقَنا، هذَا لا يَحقُّ لكُم حَضرَةَ القاضِي ولا لدَولتِكَ.

وهُنا حدثَ هرجٌ ومرجٌ في القاعةِ، خاصةً بعدَ أَن قامَ مجموعةٌ من الطلابِ العربِ برفعِ علمِ فلَسطين في قاعَةِ المَحكمةِ، كمَا رفعوا لافتاتٍ تدعو إلى سُقوطِ الاحتلال، وخَرائِطَ لفلَسطِين التاريخيةِ المُحتَلة.

طلبَ القَاضي الهدوء من الحضورِ بمطرَقتِهِ الخَشَبيةِ:

- هُدوء وإلا سَأُخرِجُ الجَميعَ.

ثُم نظرَ إلى مُساعد وقالَ:

- هَذهِ ليسَت قاعَة خِطاباتٍ يا سَيد، إن أرَدتَ أن تُلقي خطابًا سياسِيًّا اخرُج إلى الشارعِ وليسَ هُنا، ثُم إن الأَمرَ مُختَلفٌ، أَنت ادعيتَ امتلاكَ أرضِ القَمرِ، واستندتَ (للحق التاريخي)، وهذا ليسَ منطقًا، فالقمر ليسَ ملكًا لِأَحدٍ، كالبحرِ والمحيطِ والماءِ والهواءِ والنارِ، بينَما أَرضُ (إسرائيل) ثابتةٌ منذُ آلافِ السنين، إنها ملكٌ للشعبِ اليهودي، ولهم حقٌّ تاريخي فيها.

- حَضرَة القاضي، المَحكَمة المُوقرَة؛ لقَد قلتَ قبلَ قليلٍ أَن القمرَ ليسَ ملكًا لأحدٍ؛ كالبحرِ والمحيطِ والماءِ والهواء والنار، لا حق لأحدٍ في امتلاكه، أوافقُكَ الرأيَ سيدي القَاضِي لكن الذي لا تعرفُه أَنتَ ومَن يؤيدُ هذَا الكيانَ المُحتل أَن فلسطينَ بالنسبةِ لَنا هي الماءُ والهواء، ولا يَحق لأَحدٍ أن يَدَّعي الحَق التاريخي فيها غير أَبنائِها الحقيقيين، وما دامَت دولَةُ كيانِ الكذبِ والتضليلِ تَدعي أَن لها حقًّا تاريخيًّا في بلدِنا العَربي المُحتل فلسطين، فَأنا وأَخي لنا حق تاريخي في

أرضِ القَمَرِ، وقَد أورثَهُ لنا الوالدُ عن جدهِ، وعليكَ أن تُصَدقَ ذلكَ شئتَ أَم أَبَيْتَ.

أخذَ القَاضي يطرقُ طاولتهُ الخشبية، طالبًا من الجميعِ الهدوءَ، ثم أَمرَ (مساعدًا) أن يَجلسَ مكانَهُ، وقالَ:

- النطقُ بالحُكمِ بعد لَحظاتٍ.

بعدَ التشاورِ مع هيئةِ المحكمة؛ بدأَ القاضي النطقَ بقرارِ الحكم:

- قَررَت المحكمةُ في القضية رقم (...)، المرفوعة سَنة (...)، بناءً على المادةِ (...) من قانونِ الأَملاكِ والعقاراتِ؛ برَدِّ الدعوى المرفوعَة ضد وكالة ناسا، وإلزام المُدعيين بدفعِ مصَاريفِ القَضيةِ، كذلكَ قَررَت المحكمةُ عرضَ المُدعيَين على طبيبٍ نفسي للتأكدِ من قواهُمَا العقلِيةِ، رُفِعَت الجلسَةُ في يومِه وتاريخِه.

الحُبُّ المَمنُوع

عادَ لِتوِّهِ من المدينةِ، دخلَ بيتهُ، ثم صعدَ إلى غرفةِ نومهِ، وقبل أن يخلعَ ملابسَه كان قد ألقى بكُلِّ آلامِه وخيباتِه فوق السَّرير، وغطَّ في نومٍ عميقٍ، فمنذُ أن صَبَغَت الحياةُ عينيهِ بِألوانِها البنفسجيةِ لم ينَمْ بهَذا الشكلِ، ولم يَغْفُ كما غَفا أَمس، كانَت الساعةُ الرابعة عصرًا عندما وضعَ رأسَه فوقَ الوسادةِ، لم يستيقِظ إلا في اليومِ التالِي تمامَ الساعةِ العاشرةِ صباحًا، كأنه لم ينَم منذُ شَهرين.

بدأَت الشمسُ تُلْقي بظلالِ فرحتِها فوقَ أروقةِ المكانِ، حيثُ فتحَ عينيهِ على عبيرِ حَيَويَّتِها، كانَت آثارُ لَسعاتِ حِقدِهِم ترسمُ ألوانَها القاتمةَ فوقَ جسدِهِ، والألمُ يشتدُّ في كُلِّ أنحاءِ جسمِه، على الرغمِ من أنهُ أبرَزَ لهم تَصريحَ الدخولِ إلى المَدينةِ، إلا أنَّهُم أَصَروا أَنَّه (مُخرب)، ويكذبُ عليهم، أقسمَ لهم أنه كانَ بصحبةِ صديقتِه، ودخلَ المدينةَ بشكلٍ قانُوني، لم يُصَدقُوه، في الحَقيقةِ هم لا يُريدونَ أن يُصَدِّقُوه، يشعرونَ بحالةِ مللٍ على الحاجزِ في هذهِ الساعة، ولا عملَ لهُم الآنَ سِواه، طلبوا منهُ أن يُغَنِّي لهُم، أخبرَهُم أنهُ لا يجيدُ الغِناء، طلَبوا منهُ شتمَ العربِ، سكَت ولم يُعَقِّب، حينها ألهَبُوا جسدَه

بعصيِّهم وركلاتِهم، حتى فقدَ الشعورَ بجسدِه وأطرافِه، ها هو الآنَ يتكومُ فوق سريرِه كأنهُ كيسُ دقيقٍ مثخنٌ بجراحِه، يَتَلَوَّى ويتأوَّهُ كُلما تحركَ يمينًا أو يسارًا، في تِلكَ اللحظَاتِ، ودونَ أن يشعرَ بما يفعلُ؛ أخذَ يضعُ رقمَها على شَاشةِ هاتفِهِ، ثم طلبَها، بعدَ ثوانٍ قليلةٍ جاءَه صوتُها الرخيمُ يَسبحُ في أمواجِ الهاتف، وضحكتُها الشقيةُ التي اعتاد أن تدغدغَ أُذُنيهِ، وتشعلَ كلَّ خَلايا جَسدِه.

– أهلًا حَبيبي، لقد اشتقتُ لك، I miss you baby، أرجو أن تكونَ استَمتَعتَ يومَ أَمس، أَنا سعيدةٌ جِدًّا، كم أَنا سَعِيدةٌ وأَنتَ معي!

هكَذا بَدأَت حديثَها دونَ أَن تعطيَهُ الفُرصَةَ للحَديثِ.

– أَعتقِدُ أَنهُ يجبُ عَلينا أَن نتَحدثَ يا عَزيزَتي، Dear, I think.. we must to talk.

قاطَعَها بهذِهِ الكلماتِ، ثم أقفلَ الهاتفَ، وألقاهُ بجانبِهِ على السريرِ، ثم بدَأ يعودُ بِذاكِرَتِهِ إلى الوراء، يومَ لقائِهِ الأولِ.

كانَ (سامي) يومَها في طريقِهِ إلى مدِينَةِ رام الله، مملوءًا بالحياةِ والشبابِ والأَملِ، أخيرًا ابتَسَمَت لهُ الحياةُ، وعانَقَتهُ ورودُ المُستقبلِ، أصبَحَ مُوظفًا في وزارةِ السياحَةِ مُتَرجمًا ودَليلًا سِياحيًّا للرعايا الأَجانِبِ، لَم يمضِ الكَثيرُ على تَخَرجِهِ من جامعَةِ بيرزيت، فقد كانَ محظوظًا أَكثرَ من غيرِهِ من الذينَ يَنتظرونَ دورَهم للحُصولِ على وظيفةٍ منذُ سَنواتٍ، يومها تم إيقافُه على أَحد الحَواجِز العَسكريةِ

التي تقطعُ أَواصرَ الوطنِ، كانَ صف الانتظارِ يَتقدمُ ببطءٍ نحوَ نقطةِ التفتيشِ، مضى الآنَ على وجودهِ ما يقاربُ ساعتين على الحاجزِ عندَما لاحظَت الضابطةُ مسؤولَةُ الحاجزِ شابًّا يَستأذِنُ الواقِفينَ أمامهُ ليَتقدمَهم؛ خشيةَ أَن يتأَخر على عَمَلهِ في يومِهِ الأولِ.

طلبَت الضابطَةُ الشقراءُ الشابةُ من الجَميعِ العودةَ إلى الخلفِ، ثم أشارَت بأَحد أصابِعها إليهِ ليتقدَّمَ نحوها، نظرَت إلى ذَلكَ الشاب الأَسمَر فارعِ الطولِ، ضَخمِ الجثةِ، ذي الشعرِ الأسودِ المُجعدِ، لَمَعَ في عينَيها سحرُ الشرقِ العربيِّ الأسمَر، طلبَت منهُ بطاقَةَ الهويةِ، استجابَ لها، حدقَتْ بها، ثُم أعادَتها لهُ، سَألتهُ:

– إلى أينَ أَنتَ ذاهبٌ؟

– إلى رامَ الله.

– وماذا تفعلُ في رام الله؟

– لقد حظيتُ بوظيفةٍ، وهذا يومي الأَولُ في العملِ، ولا أريدُ أَن أَتَأَخرَ.

ابتسَمَت له ثم قالَت:

– لا تقلقْ، تَستطيعُ أَن تَمُر.

وأشارَت بيَدِها نحوَ المدينَةِ، تعجبَ سامي لأَمرِها، لَم يُصَدقْ أنهُ سوفَ يمُرُّ بهذِه السرعةِ، سارَ دونَ أن ينظرَ وراءَه، لكنها اسْتوقَفَته، نادته باسمِه الشخصِي هذِهِ المَرة:

- سامي!

تَسَمرَ في مكانِهِ، حتى ظَن أنها تَراجعَت عن قرارِها بالسماحِ له بالمرورِ، نظرَ إليها:

- اسمُكَ جميلٌ جدًّا.

قالَت ثم ابتَسَمت، وأشارَت إليهِ بكفِّها أَن يُتابعَ السيرَ، تابعَ سيرَه وقد حفرَت في مخيلَتِه ابتسامتُها وصورتُها، كانت بزتُها العسكريةُ تُجَسدُ أدَق تفاصيل الأنوثةِ الثائِرةِ فوقَ تضاريسِ الجَسَدِ.

زادَها بهاءً طولُها الفارعُ، وقوامُها الممشوقُ، أَما ضفائرُها الذهبيةُ فكانت تُسافرُ إلى حدودِ آخِر فقرةٍ من فقراتِ عمودِ فتنتِها المشتعلَة، والخَدُّ غابةُ تفاحٍ يستدعي نحلَ العسلِ الجائِعِ، كانَت زرقَةُ الأمواجِ الهادئة تَنسابُ في عَينيها اللوزيةِ، ترى الدماءَ وهي تجري في شرايين جيدِها الياقوتي من شدةِ البياضِ، والكرزُ ينضجُ على مهدٍ يقطرُ سكرًا فوقَ شَفتَيها المخملية، قطعةُ فسيفساء رائعةُ الجمالِ والفتنةِ تدغدغُ مشاعرَه وشهيتَه، لكن كان هناك شيءٌ يُشوهُ تلكَ التحفةَ الفنيةَ، يُفسدُ الصورةَ والإطارَ، ينتفضُ مذعورًا من منظرِ بندقيةٍ جاثمةٍ فوقَ رخامِ إليتَيها.

- ليتها من دون بندقيةٍ!

قالَ في نفسِهِ، ثم أردفَ:

- لكنها جميلَةٌ، لم أَرَ فتاةً بهذا الجمالِ من قبل، ليتها ليست منهم!

كانَ يُحدِّثُ نفسَهُ، وصورةُ ابتسامتِها تراقصُ عَينيهِ.

أَنهَى دوامَهُ الرسمِيَّ، كانَت الأمورُ على ما يُرامُ، لكنه حينَ همَّ بالمُغادرةِ بدَأت طريقُ العودةِ تُؤرقُه، وصورةُ ابتسامتِها تلاحقُه، وصلَ الحاجزَ مُتأخرًا، كانَ معظمُ الناسِ قد مَروا، ولم يبقَ إلا هو، وبعضُ مَن تقطَّعَت بهم السبُلُ، كانَت في انتظارِه، استقبلتهُ بالابتسامةِ الساحرةِ ذاتها، سألتهُ عن يومِهِ الأولِ في العملِ كيفَ كانَ، أجابَها:

- لا بأس، كانَ جيدًا.

ثم توقفَ لحظاتٍ إلى جانبِها، ثم قالَ:

- هل أستطيعُ التعرفَ إلى اسمِكِ؟

- بالتأكيدِ، بكُل سرورٍ، أنا اسمي (نتالي)، من أصولٍ روسيةٍ، هاجرتُ إلى البلادِ قبلَ خمسِ سنواتٍ.

- اسمُكِ جَميلٌ جدًّا، لكنكِ تتحدثين الانجليزيةَ بطلاقةٍ!

- تعلمتُ الانجليزيةَ هنا في المعهد؛ لأَنني قَـررتُ السفرَ للولاياتِ المُتحدةِ؛ لاستِكمالِ دراستي الجامعيةِ، بعدَ انتهاءِ خدمتي العَسكريةِ.

"ليتَكِ من دون بندقيةٍ"، تمتمَ بصوتٍ منخفضٍ.

- هل قلتَ شيئًا؟

- لا؛ لم أقُل شيئًا، فقط تأَخرَ الوقتُ، ويجبُ أَن أذهَبَ.

- هل لديكَ عملٌ في الغد؟

- نعم، وأنتِ هل ستكونِينَ هُنا غدًا؟

- أنا هُنا كل يومٍ، ستراني كلما مررتَ من هُنا، أَنا ضابطةُ الحاجِزِ.

بَدَأت تتعلقُ بطلّتِهِ الصباحيةِ شيئًا فشيئًا، حتى أصبحَت لا تطيقُ يومًا جديدًا دونَ أَن تراهُ، حتى بلغَ بها الأمرُ ذاتَ يوم أن أغلقَت الحاجزَ عندما تَأَخرَ عن موعِدِهِ، ومنعَت الناسَ من المُرورِ، تأخرَ يومَها لاصطحابِ والدتِه لِعيادَةِ القريةِ، استغربَ إغلاقَ الحاجزِ والطابورَ الطويلَ لجموعِ البشرِ الذينَ يَنتظرونَ دورَهم لدُخولِ المدينةِ، تجاوزَ الناسَ ليَستوضحَ الأمرَ، وما إن رأَتهُ حتى فَتحت البواباتِ، وسَمحتْ للناسِ بالمرور، دونَ حتى التدقيقِ في بطاقاتهم الشخصيةِ كما جرَت العادةُ، سأَلها عن سببِ إغلاقِ الحاجز، وهَل هُناكَ خطبٌ ما، فأجابتهُ بأنه السبب.

- أنا؟!

قالَ مُستغربًا.

- نعم أنتَ، أعتقدُ أَنني اعتدتُ رؤيَتَكَ كلَّ صباحٍ كإِشراقةِ شمسٍ، وعندما غبتَ فقدتُ صَوابي، ولا أَدري مَا الذي أَصابَنِي.

تنَهدَ، ثم نَظرَ إِلى الأسفلِ صوبَ قَدَميهِ، وقالَ:

- أَعتقدُ أنني أيضًا اعتدتُ وجودَكِ على هذَا الحاجِزِ، وتجتاحُني رغبةٌ لرُؤيَتِكِ، لكن دونَ حاجزٍ.

تَوَرَّدَ خدَّاها، وأطربَها كلامُه، أدرَكَت أن هذِهِ المشاعرَ متبادلةٌ بينهما، الأَمرُ الذي شَجعَها على طلبِ رقمِ هاتفِهِ النقالِ، في البدايةِ أَخافَهُ طلَبُها هذَا، وسَألَ:

– لماذا؟!

أَجابَتهُ بِأَنها تريدُ محَادَثتهُ في أوقاتِ فراغِها؛ لِأن بضعَ دقائِقَ على الحاجزِ غير كافيَةٍ.

– لكن ماذَا عن البُندقية؟ بيني وبينَك بندقيةٌ.

– وما شأنُ البندقيةِ؟ هذِه فقط للعملِ هنا لا أكثر، أنا ملزَمةٌ بها.

كانَ سحرُ الرغبةِ والإغواء والجسدِ البُركاني يَتجاوزُ حدودَ العقلِ والأَسئِلةِ، استَجابَ لها، وتبادَلا أرقامَ هواتِفِهما، ثم سارَ نحوَ المدينةِ، لكن بياضَ الأَسئلةِ ظلَّ ماثلًا أَمامَ حيرتِهِ وقلبِه.

***

لَم يكُن متأكدًا إن كانَ يُحبها أَم لا، لا يعلَمُ إن كانَت تلكَ المشاعرُ التي تَحتَل فضاءَهُ حُبًّا أم نزوةً عابرةً، لكن ماذا إن كانَ حُبًّا؟ ما مُستقبلُ هذا الحُبِّ؟ أليسَت هي من الأعداء؟ ثم ماذَا سيقولُ للناسِ إن علموا بذَلكَ، ربما سينبذونهُ، أو حتى يتهمونَهُ بالخيانةِ، لكن القلوبَ ليسَ لها دينٌ أو وطنٌ أو طائِفَةٌ أو مذهَبٌ عندمَا تنبضُ بالحُبِّ، أسئِلة كثيرةٌ تدورُ في خلدِه في تلكَ اللحظاتِ، موجٌ من الصراعاتِ المُتلاطمَةِ داخلَه، إنها الأضدادُ، لكنهُ أمامَ سطوةِ جَمالِها

وسحرِ فتنتِها؛ قررَ أن يتجاهلَ فيضانَ الأسئلة التي تجتاحُ كيانَهُ.

بدَأت (نتالي) تتعلقُ به أكثر فأكثرَ، أصبحَ شغلَها الشاغلَ ليلًا ونهارًا، لا تفوتُ فرصةً لمُحادثتِهِ في أوقاتِ الشوقِ والفراغِ، هو أيضًا بدأَ يَشعرُ أنها تَحتلُّ حيزًا في فراغِ وحدةِ قلبِهِ، هي إذَن ربما تحتَلُّ قلبَه، تحتلُّ بلادَهُ، تَحتَلُّ أرضَهُ، حتى في الحُبِّ هُناكَ احتِلال؟! اللعنَةُ عَلى هذِه الكلمةِ.

مع مرورِ الأيامِ؛ أصبَحَ يعتادُ وجودَها في حياتِهِ، يفتَقِدُها إن طالَ غيابُ صوتِها في أمواجِ الهاتفِ، تجاهلَ الكثيرَ من الأسئِلةِ المُتصارعةِ داخلَهُ، أقنعَ نفسَهُ أنهُ لا ذنبَ لها في ذَلِك الصراعِ، بررَ وجودَها على ذلكَ الحاجزِ بأنهُ مُجرد خِدمةٍ عسكريةٍ مفروضَةٍ عليها، وليسَ باختِيارِها، تغاضَى عن صورةِ البُندقيةِ والبزةِ العسكريةِ على مدخلِ المدينةِ، تجاوزَ عن تَعذيبِ البشرِ على حواجزِ السادِيَّةِ والإذلالِ، ربما يَكونُ ذلكَ هو الحُب، لا يدري.. رُبما! لأننا عندَما نُحب لا نرى إلا الجانبَ المُشرقَ من المَحبوبِ، ونَتَغاضى عن الكثيرِ من العيوبِ، يُصبحُ ذلك الحُب دينًا متَّبَعًا، وكتابًا مقدسًا سماويًّا، وإلهًا مَعبودًا، نجعلُ الحبيبَ يبلغُ مستوى الْآلِهةِ والتقديسِ، لا نرى له عيوبًا على الإطلاقِ، نُصابُ بالعَمى ونفرحُ بذَلِكَ.

إذَن، لقَد أَعطى إجازةً مفتوحةً لذلك الصراعِ الداخِلي المُشتعل.

ذاتَ يومٍ رَن هاتفُهُ النقالُ، كانَت هي على الضفةِ الأُخرى من

ضِفافِ المُتعةِ والسرورِ، سَألتهُ عن إجازةِ نهايةِ الأسبوعِ، فأخبرَها أنهُ لا عملَ لَدَيه.

– ما رأيكَ إذن أَن نقضيَ هذين اليومَين معًا؟ سأُعرفُكَ إلى عائِلَتي، وسأَصطحبُكَ في جولةٍ إلى أي مدينةٍ تريدُ.

فكرَ قليلًا، كان مُترددًا.. قالَ لها:

– سَأُفكرُ..

– لا وقتَ للتفكير.

– لكن..

– لا وقتَ للكن أَيضًا.

– إذَن موافق!

– رائِعٌ! سوفَ تقضي معي يومَين لن تنساهُما طوالَ حياتِكَ.

قالَت بشقاوةٍ، ثم سألَت:

– أين تريدُ أَن تَذهَبَ؟ حيفا.. يافا.. (تل أبيب)؟

– أريدُ أَن أذهبَ إلى حيفا.

– لماذَا حيفا؟ هل دخَلتها من قبل؟

– لا؛ لَكنني قرَأتُ وسمعتُ عنها كثيرًا، ولَم أَدخلْها حتى الآنَ.

– جيد، إذَن انتَظرني غدًا الساعةَ السابعةَ على حاجزِ القدسِ، ندخلُ المدينةَ، ومنها نذهبُ إلى حيثُ نريدُ.

– اتفقنا.

في اليومِ التالي؛ كانَ في انتظارِها على مشارفِ مدينةِ القدسِ، حيثُ أقلَّتهُ بسَيارَتِها الفارهةِ، وبدأَت تقطعُ معه الشوارعَ والمسافاتِ، وتشيرُ بيدِها إلى كُل مدينةٍ يَمرونَ بها أو يَتجاوزونَها، كانَ يُبدي اندِهاشَهُ وإعجابَهُ بمناظرِ الشمالِ الفلسطيني الخلابِ.

دخَلا إلى أَحد المطاعمِ في المدينَةِ، وتناولا فطورَهما فيهِ، ثم بدأَت تتجولُ معهُ في شوارعِ المدينةِ، بدَت حيفا غير حيفا التي سَمعَ عنها وقرأ، وغير حَيفا التي حدثتهُ جدتهُ عنها، المباني.. الشوارِع.. المحلات.. كُلها غريبَةٌ لا تُشبهُ أبدًا الصورَ التي شاهدَها في ألبومِ جدتهِ ذي اللونَين الأبيض والأسود، سأَلها عن (الهادار)، استغربَت سؤالَه.

- لا تُوجدُ منطقةٌ في حيفا بهذَا الاسمِ.

أجابَت، هو لَم يَهتم لإجابَتِها، فهي قادمةٌ جديدةٌ، لا تعرفُ شيئًا عَن هذه البلادِ، قضَيا معظمَ اليومِ يتجولانِ في شوارعِ المدينَةِ من مطعَمٍ إلى مطعمٍ، ومن شارعٍ إلى شارعٍ.

في المساء؛ صعَدا إلى أَعلى نقطةٍ في جبلِ الكرمل، كانَ منظرُ المدينةِ خلابًا وجَميلًا جدًّا.

- انظرْ إلى جمالِ حيفا من هذِه الزاويةِ، المدينةُ كلها تَتَعرى أَمامَك الآنَ.

وأَشارَت بإصبعِها نحوَ المدينةِ.

- نعم؛ إنها رائِعَةُ الجمالِ، لم أرَ منظرًا مُدهشًا وجميلًا كهذا.

– نعم؛ كُل مُدنِنا جميلَةٌ؛ لذَلكَ وهبَنا اللهُ هذِه البلادَ المُقدسَةَ، وجعلَها خالصةً لبني إسرائيل.

كانَت هذهِ الكلِماتُ تقعُ كالصاعقةِ في أذُنيهِ، حيثُ تحركَ الفِلَسطيني المقهورُ داخلَه، نظرَ إليها وقالَ:

– مُدُنكم؟! وبلادُكم؟! قد تستطيعون يا (نتالي) أَن تُزَوِّروا المَباني والحجارة، وتُغيِّروا معالمَ الأماكن وصور الأَشياء، ومنظرَ الشوارعِ والحاراتِ، لكنكُم لَن تستطيعوا تزويرَ التاريخِ، قَد تحصُلونَ على أي شيءٍ بالقوةِ التي لديكُم، لكن الحَق لا يُصبَغ، ولا يختفي مع مرورِ الزمنِ، يا (نتالي)؛ لا شأنَ لكم بمُقدساتِ هذِه الأرضِ، اللهُ لم يَهبكُم شيئًا، الذي وهبَكم هو الاستعمارُ الغربي البريطاني، وهبَ مَن لا يملكُ لَمن لا حقَّ له، عندما عرضْتِ عليَّ هذِه الرحلةَ اخترتُ حيفا متعمدًا، جدي وجدتي؛ أصلُهما، والدماءُ التي تَجري في عُروقِهما، ورائِحتُهما من هُنا قبلَ أَن يلجؤوا إلى ذَلِك المخيمِ الذي يقطنانهِ الآنَ، ثم إنكِ قلتِ لي إنكِ جئتِ إلى هذِه البلادِ منذ خمسِ سنواتٍ فقط، لا أعتقدُ أن هذهِ الخمس سنواتٍ كافيةٌ لتعرفي قَداسَةَ البلادِ، (وتعرفي الله الذي وهبَكم إياهَا)، بلَدُكم روسيا يا (نتالي).

حاولَت (نتالي) أن تُهَدِّئَ مِن حدةِ حديثِهِ، فلمْ تلحظهُ يتحدثُ في السياسةِ والوطنِ والقضيةِ من قبل، على الرغمِ من أَن سامي شخصٌ عاديٌّ، غير مهتمٍّ بأمور السياسةِ طيلةَ السنواتِ السابقة،

كانَ همُّهُ الدراسة والتخرج، والحُصول على وظيفَةٍ، كانَ حِياديًّا جِدًّا، وكانَ حيادُه سلبيًّا، لَكنهُ كان على اطلاعٍ واسِعٍ بتاريخِ بلادِه، من خلالِ حكايا أَجدادِه ودراستِهِ الجامعيةِ.

– لَم أقصِد الإهانَةَ baby، لا أُريدُ أن أُعَكِّرَ صَفوَنا بهذَا الحديثِ، تعالَ اقترِبْ..

وضَعَت كفَّها فوقَ كَفِهِ، ثم اقتَرَبَت أكثَر وقَبَّلَتْهُ، في محاولةٍ منها لإخمَادِ نارِ السياسَةِ، وإشعالِ نارِ الرغبةِ والإغْواءِ.

– هَيا نذهَب لأُعَرفَكَ إلى عائلَتي..

أَمسَكت بيدِهِ، ثم قادتهُ إلى السيارةِ نحوَ المدينَةِ.

قبلَ انتهاءِ هذه الرحلَةِ التي أَشعلَت شيئًا داخلَهُ؛ اتفقَا أَن يلتقيا كُلَّ نهايةِ أُسبوعٍ في المدينةِ المُقدسَةِ، فهذا أكثر أمنًا له، ويُجنبهُ الاعتقالَ ومسألةَ الدخولِ غير القَانوني لبلادِه المُحتلة، إضافةً إلى قربِها من مكانِ سُكناهُ، وأوفر للوَقتِ، كذَلكَ انتقلَت (نتالي) لتَسكنَ في الشطرِ العرَبي من المدينَةِ؛ لتكونَ إلى جانبِ الحب والحاجزِ.

هاتفتهُ ذاتَ يوم:

– لقد حجزتُ لنا غرفَةً في فندقِ الملكِ داود، هَلا تكرمتَ بالحضورِ؟ أريدُ أَن نقضي هذَين اليَومين معًا هُنا في المدينةِ، لا تَتأَخر، أنا في انتِظارِكَ.

ذهبَ إليها كما اعتَادَ أَن يفعلَ كُل نهايةِ أسبوعٍ، كانا يَقضيانِ

وقتًا مُمتعًا، مُتسكِّعَين في الشوارعِ والمَطاعِم والمَلاهي والحدائقِ العامةِ ودورِ السينما، ثم توصلُه إلى الجهةِ الأُخرى للحاجزِ، حيثُ يَعودُ للمخيم.

يذكرُ يومَها أنهُ بعدَ أن غادرَ الفندقَ رافقَتهُ إلى مخرجِ الحاجزِ، إلا أَنَّ اتصالًا طارِئًا جاءَها من والدَتِها، أَخبرَتْها أنها مُتعَبةٌ، وفي حاجةٍ إلى مَن يوصلُها إلى المُستَشفى، مما اضطرها إلى أَن تتركَهُ على الحاجزِ مباشَرَةً داخلَ المدينَةِ، كانَت مطمئنةً أنهُ يملكُ هذه المرةَ تصريحًا لدُخولِ المدينَةِ، لاحظَ الجنودُ طيفَهُ عندما ترجَّلَ من سيارَتها، عرفوها على الفورِ، وأدرَكوا أنها منهُم، لكن ملامحَهُ كانَت غريبَةً عنهم، لا يشبِهُهم أبدًا، كل ملامِحِهِ وسحنتِهِ تشي بأنه عربي، إذن ما الذي جاءَ بهذَا العرَبِي إلى سيارَةِ ضابطةِ الجيشِ الجميلَةِ الشقراء، أثارَ فضولَهم هذا المشهدُ غير العادِيّ.

فورَ مُغادرَتِها المكان؛ أوقفوهُ، طلَبوا بطاقةَ الهويةِ، حدقوا بها، وتأَكدوا أنهُ عربيٌّ، كانوا في حالةِ مللٍ، لا أحدَ غيره في هذا الوقت على الحاجز ليُمارِسوا ساديَّتَهُم وهوايتَهُم المُفضلةَ في تعذيبِ البشرِ، اشتَرطَ أحدهم عليهِ أَن يُغني لهم إن أرادَ المرورَ، لكنهُ لا يعرفُ الغناءَ، واشترَطَ آخَر أن يشتمَ العربَ إن أرادَ المرورَ، بدأ كلُّ جنديٍّ يُدلي بدَلوِهِ في حفلةِ الساديَّةِ والإذلال.

بعدَ أَن أفرغوا شُحناتِ ساديَّتِهم وتنكيلهم بهِ؛ بدَأت حفلةُ

الركلاتِ واللكماتِ، حيثُ وضَعَ كُل جنديٍّ بَصماته فوقَ جسَدِه، إما بأَعقابِ البنادقِ، أو بأحذِيتِهم العسكريةِ، حتى فقَدَ الشعورَ بجسدِهِ، وانتَشَرت الهالاتُ الزرقاءُ على امتدادِ الجسَدِ المُنهَك.

عادَ إلى بيتِه لا يقوَى على الحراكِ إلا قليلًا، بعدَ أَن مكثَ يومين في المُستشفى، ها هو الآنَ يتكومُ على سريرِه، هاتَفَها قبلَ قليلٍ، قررَ أن يَلتقيا ولو ذَهبَ إليها زحفًا، اتفقا أَن يَلتقيَا عندَ محطةِ الوقودِ القريبَةِ من مدخلِ حاجزِ المدينةِ المقدسةِ من جهتهِ هو.

- أخيرًا حضرتِ!

جالَت بعَينيها بين جموعِ الوجوهِ المُتعبَةِ، تعرفَت إليهِ بصُعوبةٍ، هالَها منظرُ وجهِهِ الأَزرق المُنتَفِخ.

- ما الذي جرى لكَ يا حبيبي؟ مَن فعلَ بكَ ذَلِكَ؟

- هذِهِ بصماتُ جنودِكُم يا (نتالي)، أَليس هذا هو طبيعَة عملِكم على الحاجزِ؟ أليسَ هذَا هو طبيعَة عملِكِ أَنتِ أيضًا.

- أنا لستُ مثلَهم يا سامي، أنا أُحبُّكَ.

- لستِ مثلَهم؟ لكنكِ منهم! وبُندقيتُكِ لا تختلفُ عن بنادقِهم.

- لا تقلْ هذا! أَنا أُحبُّكَ.

- أَنتم لا تعرفونَ الحبَّ يا (نتالي)، للأسفِ أَنتم فقط تعرفونَ كيفَ تحتلون، أَنتِ أردتِ شخصًا لتحتليه وتستَوطِنيهِ، أقسمُ لكَ إنني أردتُ أن أُحبَّكِ، أقنعتُ نفسي أنهُ من المُمكن أَن أحبَّكِ،

وأردتُ ذلكَ، أقنعتُ نفسي بأَن بندقيتَك وبزتَك العَسكريةَ مجردُ عملٍ مفروضٍ عليك، لكنكم للأسفِ لا تَستطيعونَ أَن تعيشوا دونَ بنادق، ودون موتٍ وقتلٍ.

– أرجوكَ اهدَأ يا سامي! ولا تُضيِّع هذا الحُب الذي بيننا، أنتَ شخصٌ مختلفٌ، بنادقنا ليسَت لك، بل للمُخَربِين الذين يرفضُونَ السلامَ.

– لا تتحدثي عن الحُبِّ يا (نتالي)، هذا الحُب وُلِد ميتًا، وطالما تتحدثين بهذا المنطقِ فأَنتِ لا تعرِفينَ الحُب، أنتم تعرفونَ فقط الاحتلالَ والتَّملكَ، ثم إن مَن تصفينهم (بالمخربين) هم أبناءُ شَعبي، أَحوجُ الناسِ إلى السلام، وأَكثرُ الناسِ بحثًا عنهُ، لكنهم لا يريدونَ أن يروكُم علَى الحواجزِ، أعتقدُ أَن سلامَنا غير سلامِكم يا (نتالي).

وقفَ دون استئذانٍ، واستعانَ بعُكازٍ على الوقوفِ، سارَ في خطى مُتثاقلةٍ دونَ أَن ينظرَ إلى الوراء، صعدَ إلى سيارةِ أُجرةٍ أقلَّتْهُ إلى المُخيم، وما إن وصلَ إلى منزلِه؛ حتى شاهدَ عددًا كبيرًا من دورياتِ المُحتلين تُغادرُ المخيمَ من مدخلِه الغَربيِّ، استوضَحَ عن الأمرِ، فأخبروهُ أنهُم داهَموا منزلَ الحاج أبي نضال، بحثًا عن ولدهِ المطارَدِ نضال، واصلَ سيرَهُ نحوَ بيتِ الحاج أبي نضال، طَرقَ البابَ، ففتحت أُم نضال، رحبَت بهِ:

– تفضَّل يا بُني، البيتُ بيتك.

- شُكرًا خالتي أُم نضال.

اقتَربَ منها، ثم نظرَ يمينًا ويسارًا، وهمسَ في أُذنها:

- إن زارَكم نضال يا خالَتي؛ أخبريهِ أنني أَودُّ رؤيتَهُ للضرورةِ القصوى.

ثم استدارَ مُتوجِّهًا إلى منزلِهِ.

المَوتُ الأَحمَر

المكان: أَحدُ أقبيَةِ التَّحقيقِ.

الزمان: أوائلُ عام 1970م.

قبلَ قليلٍ؛ كانَ مُعلَّقًا على جدارٍ، حرروا معصَمهُ الأيمن، ثم معصمه الأيسرَ، وجدَ صُعوبةً في إنزالِ يديهِ إلى مستوى خصرِه، مضى عليهِ شهرٌ وهو في هذه الوضعيةِ، جسدُهُ النحيلُ الأزرقُ مُغَطى بالدماءِ، أُغميَ عليهِ عشرات المراتِ، تعبَ المُحققُ من كثرةِ ضربِهِ، تناثرَت دماؤُهُ على وجهِ المُحققِ.

في البدايةِ؛ كانَت لغةُ التهديدِ سيدةَ الموقفِ، هددوهُ بأنهُ لَن يخرجَ من هنا حيًّا إن لم يعترفْ، لكنهُ اتخذَ من لغةِ الصمتِ سلاحًا، سأَلهُ عن اسمِه لم يُجِب، سألهُ عن بلدتِه ظلَّ صامتًا، وجَّهَ له صعقةً كهربائِية، لم ينبس ببنتِ شفةٍ، فقدَ المحققُ صوابَهُ، أَخذَ يُوجهُ له اللكماتِ في جميعِ أنحاءِ جسدِه، أصابت المحققَ نوبةُ هستيريا، وراحَ يضربُه بهراوةٍ تأكلُ من لحمِهِ دونَ عظمِه، ازدادَ صلابةً، دماء فوقَ حائِطِ الشَّبْحِ، دماء على أرضِيةِ المكانِ، جربوا معه كل ما ابتكرَت عقولُهم الإجرامِيةُ من أدواتِ تعذيبٍ، لكنهُ لَم يعترف، بدأَ المُحققُ

يتوَسلُ إليهِ أَن يعترفَ، تعلو جبهتهُ، ويزدادُ شُموخًا، أُنهِكَ المُحققُ، أرادَ أن يأخذَ قسطًا من الراحةِ، أمرَ بوضعِهِ في إحدى زنازين التحقيقِ شديدةِ البرودةِ.

كانَ الصقيعُ يلتهمُ الأجسادَ، والزنزانة عاريةً تَمامًا من الفراش، جلسَ على أرضيةٍ إسمنتية، مع بطانيةٍ واحدةٍ فقط، كانَ يَتعالى على آلامهِ ودمائِه وبردِ الشتاءِ القارسِ، تحملَ أشَد أنواعِ العذابِ كي لا تخطرَ ببالِهِ كلمةُ (اعتراف)، كانَ يُؤمنُ بمبدأ (الاعتراف خيانة)، كلما التقى بأحد رفاقِه الأسرى في لحظاتٍ مسروقةٍ؛ كانَ يَحثهُم على الصمودِ.

جَلسَ على أرضيةِ الزنزانةِ الباردةِ، وضعَ البطانيةَ على جسدِه، لم يحتملْ بردَ الأرضِ، بدَّل الوضعية، فوضَع البطانيةَ على الأرضِ وجلسَ عليها، لكن لسعةَ البردِ لا تفارقُ جسَدَهُ العاري، جربَ وضعيةَ الوقوفِ، فوجدها أكثرَ أَلَمًا وبردًا، في النهاية؛ أَراد أَن يرتاحَ قليلًا قبلَ أن تبدأَ جولةُ تعذيبٍ أُخرى، وضعَ نصفَ البطانية على الأرضِ، استخدمها للجلوسِ، والنصفَ الثاني غطى به جسدهُ، وما إن أرخَى رأسَه على الجدار؛ حتى سمعَ صوتَ أنينٍ قادمٍ من الزنزانة المجاورةِ، حيثُ كانَ هناكَ ثقبٌ صغيرٌ بين كل زنزانةٍ وأُخرى، بدأَ الصوتُ يرتجفُ من شدةِ البردِ، صوتُ أسنانِه تصطكُّ، يصلُ حتى أذُنَيهِ، هو أيضًا على ما يبدو أُصيبَ بموجةِ بردٍ صارَ يسعلُ جراءَها، سمعَ الشابُّ في الزنزانةِ الأخرى صوتَ سُعالِه، سألَ:

- هل يوجدُ أحدٌ هُنا؟ هل يَسمعني أحدٌ؟

- نعم يا أخي، أنا هنا بجانبِك، هل تريدُ شيئًا؟

- لا لا، فقط أردتُ التحدثَ مع أحدٍ، لم أرَ أحدًا هنا منذُ شهرٍ، البردُ يقتلني، والمكانُ شديدُ البرودة، والجراحُ تنزفُ، لم أعد أحتملُ هذا العذابَ.

- اصبرْ يا رجل! كانَ اللهُ في عونكَ، أنا هنا منذ مدةٍ ليست بسيطةً، وأتعذبُ كما تتَعَذبُ، اصمد واصبرْ فقَط، وتَذَكرْ عائلَتَكَ التي تنتظرُك.

- من أين أَنتَ؟

- من جنوبِ لبنان، وأنت؟

- من الناصرة، واسمي (ياسين الزعبي)، ما اسمك؟

- أبو خديجة، أسكن مخيمَ صبرا.

- كيف وصلتَ إلى هنا؟

- تسللتُ إلى داخلِ حدودِ الوطن، مع اثنين من المُناضلين؛ لتنفيذِ عمليةٍ فدائيةٍ، استشهدَ رفيقايَ، وأنا بقيتُ حيًّا.

- ما دُمتَ اعتُقِلتَ في عمليةٍ؛ لماذا يُحققون معك؟

- يريدونَ معرفةَ مَن خلفي، مَن جهزني، أين، مَتى، مواقع التدريب، يريدونَ أسرارًا.

- أنا متعبٌ من البردِ، يكادُ البردُ يقطعُ أوصالي، منذُ شهرٍ وهم

يعذبونني أشَد تعذيبٍ، لم يَتركوا شيئًا إلا جربوهُ معي، سبَّحوني بالبرد عاريًا، ضربوني بالهراوات حتى أدميتُ، سكبوا عليَّ ماءً باردًا، ثم ماءً ساخنًا، والآنَ جردوني من ملابسي، لا يوجدُ بحوزتي إلا بطانية واحِدَة، لَم أعُد أحتملُ يا صَديقي، والأنكى من ذلكَ أن البطانيةَ الوحيدةَ لديَّ مبلولةٌ بالماء.

أخذَ أبو خديجة يُهوِّن عليهِ، يحثهُ على الصمودِ والصبر، ذكرَه بالأهلِ والأحبابِ الذين ينتَظرون عودته، وأن النصرَ صبرُ ساعةٍ، ووجعُ شهرٍ أهون من وجعِ أعوامٍ طوالٍ داخلَ هذا القبرِ، لكن الألمَ والبردَ اجتمَعا على الشابِّ النصراوي ياسين.

طَرَقَ البابَ، صرخَ على الشرطِي، أرادَ أَن يُنهي هذا العذَابَ بالاعترافِ، وهنا اعترضَهُ أبو خديجة مرةً أُخرى، استحلفَهُ أن ينتَظرَ حتى الصباحِ:

– ستَتحسنُ حالتُكَ بكُل تَأكيدٍ، إنها لحظةُ شيطانٍ فقط، سأُرسلُ إليكَ بطانيتي، ليسَ بي حاجةٌ لها، لكن أريدُ وعدًا منكَ أن تصمدَ، إياكَ أن تعترفَ.

هدأَ الشاب على إثر كلامِه، خاصةً بعدما علمَ أن رفيقَه أبا خديجَة مضى على وجودِه هنا ثلاثَة أشهرٍ، لكنه لم يخبرهُ منذ البدايةِ خوفًا من تثبيطِ عزائِمه، طرقَ أبو خديجةَ بابَ زنزانته، استدعى السجانَ.

- ماذا تريد؟
- أريدُ إرسالَ هذهِ البطانيةِ للزنزانةِ المجاورة.
- هذه بطانيتُك، ماذا ستفعلُ أنتَ؟
- لا شأنَ لك، إنها خاصتي، وليسَ بي حاجةٌ لها.
- ممنوع!

وهنا هددَهُ أبو خديجة بالإضرابِ عن الطعامِ إن لم يرسلها، لم يجد السجانُ سبيلًا سوى الامتثالِ لرغبةِ أبي خديجة، فما كان منه إلا أن نقلها إلا الزنزانة المجاورة.

ندمَ ياسين على ما قالَ وفعلَ في لحظةِ ضعفٍ، وخجلَ من رفيقِ القيدِ والمعاناةِ بعد أن حصلَ على بطانيةِ رفيقِه الوحيدةِ، حاولَ إعادتَها، لكن السجانَ رفضَ نقلها مرةً أُخرى، كذلِكَ رفضَ أبو خديجة استقبالَها مرةً أُخرى.

- لو استطعتُ أن أُقدمَ لكَ لحمي ودمي ما تأخرتُ، لكن عِدني ألا تعترف مهما كلفَ الأمرُ.

وعدهُ ياسين بذلكَ، وأقسَم ألا يعترف مهما كانَ الثمن.

في الصباحِ الباكرِ؛ حضرَ السجانُ إلى زنزانة أبي خديجة؛ لاقتياده لمكاتب التحقيق، فتحَ بابَ الزنزانة؛ فوجدَ أبا خديجَةَ ميتًا، صدرَ تقريرُ الطبيبِ الشرعِي فيما بعد بأن الرجلَ مات من شدةِ البردِ، بعد شهرين؛ أُفرِج عن ياسين، وما زالَ يعيشُ في الناصرة.

اغتِيالُ القَمَر

كانَت تَنتَظِرُ طلتَهُ، أَن يَأتي ذاتَ يومٍ على حِصانِهِ الأَبيَض ليَخطفَها، ويَذهَبا بعيدًا خلفَ ذَلِكَ الأفقِ، يبدَآن حياتَهما في مملَكتِهَا الصغيرَةِ، كانَت ترسمُهُ كُل ليلَةٍ في أَحلامِها البَنفسَجيةِ طيفَ ملاكٍ، يُداعبُ ضفائِرَها الذهَبيةَ تحتَ ظلالِ الدَّوالي، وحفيفِ أَوراقِ الدُّرَّاقِ، تجلسُ في سُكونِ الأَحلامِ، تنتظرُ البدرَ ليَكتَملَ، علها تَعثُرُ على الفارسِ المنتَظَرِ في ثَنايا أَمواجِ الليلِ المُسافِرِ، أَو على مَن يأتيها منهُ بخبرٍ، لكنها تُلَملمُ أَشواقَها، تقفلُ شُباكَ أسرارِها، وتخلدُ إِلى فِراشِ الأَملِ، حتى كانَ صَباح لِقائِها في يومٍ ألقَت الشمسُ بخيوطِها الذهبيةِ فوقَ حيويةِ عَينَيها، كانَت تشعرُ في داخلِها أَن هذَا اليومَ يومٌ مميزٌ، وسَيحملُ في طياتِه عبيرَ ظِلهِ، كانَت تشعرُ بسعادةٍ غامرةٍ لا تعرفُ سببَها في ذَلكَ الصباحِ.

قبلَ قليلٍ انتهَت من تنظيفِ البيتِ، وترتيبِ المطبخِ وغرفةِ نومِها، أَرادَت أَن تُنهي شؤونَ البيتِ قبلَ أَن يَعود والِدَاها وأَشِقاؤُها من أرضِهم الواقعَة على أَطرافِ القريَةِ، حيثُ ذَهَبوا لتَقليمِ بعضِ أشجارِ الزيتونِ والعِنايةِ بها، لم يبقَ عليها سوى تَجفيفِ الغسيلِ، ثم البَدء بإِعدادِ طعامِ الغداءِ، حيثُ شارفَت الساعةُ الحاديةَ عشرَة

صباحًا، وما إن بدَأت بنشرِ الغسيلِ في فناءِ البيت؛ حَتى سمعَت طَرقاتٍ متلاحقةً وسريعَةً على البوابةِ الرئيسَةِ للمنزلِ، سُرعانَ ما فتحت الباب؛ فَتجمدت في مكانِها عندَما وجدَت الطارِقَ شابًّا في العشرينياتِ من عمرِهِ، بدا عليهِ الإعياءُ والقلقُ، ولم يكُن باستطاعتِهِ التِقاط أنفاسه، حتى كادَت تسمَعُ ضَرباتِ قلبِه المتسارعَةَ من شِدةِ الخوفِ والتعبِ، لكنهُ قطعَ حيرَتها وارتباكَها برَجائِهِ:

- أرجوكِ يا أُختاه! دوريةٌ لجيشِ الاحتلالِ تُلاحقُني، أيُمكنكِ مساعدَتي؟ أَنا غريبٌ عن بلدَتكم، أجهلُ الطرقَ والمَداخلَ والمَخارجَ، ولا أعرفُ أحدًا هنا.

فما كانَ منها إلا أَن سَحبَتهُ من يدِهِ إلى الداخلِ دونَ أن تُفكرَ مَرَّتين، وأغلقَت البابَ خلفَها، كانَت هذه الخطوةُ مغامرةً صعبةً وقاسيَةً وجريئَةً في الوقتِ ذاتِه، لفتاةٍ تُدخِلُ شابًّا بيتَها دونَ وجودِ أَحدٍ من عائِلتِها في البيتِ.

كانَ مِن شَأن هذا التصرفِ أَن يفتَح عليها أبوابَ جهنم، ويُكلفَها حياتَها، بعدَ أن تلوكَها ألسُنُ الأغبياءِ المُتربصين بالنساءِ، الذين يعدون عليهنَّ أنفاسَهنَّ.

لَكنها لم تُفكر في ذَلكَ كُله، كانَ همها الوحيدُ تخليص ذَلكَ الشاب، وألا تَدعهُ يقَعُ في أيديهِم.

- لا تخف، اتبعني فقط.

طمأنَت الشاب، ثُم اصطحبتهُ إلى مخزنٍ صغيرٍ يقعُ في الجزءِ الخَلفي للمنزلِ، يُستَخدم كمبيتٍ للمواشي، وتخزينِ أكياسِ الشعيرِ والدقيقِ، حيثُ أخفتهُ بينَ مُحتوياتِ المكان، ثم وضَعت مزيدًا من الحَشائشِ والحطب فوقَ مخبَئِه.

عادَت إلى فناءِ المنزلِ، وما هي إلا لحظات حتى سَمعت طرقاتٍ مُتتاليةً على البابِ بطريقةٍ همجيةٍ تُطالبُها بفتحِ البابِ، وتهديدات بِكسرِه إن لَم تستجب، ثم جاءَ صُراخُها:

- لا أستطيعُ أَن أفتحَ لأحدٍ؛ لأَنني وحدي في البيتِ.

سُرعانَ ما زادَ الصراخُ، وتجمَّعَ عددٌ من كبارِ السنِّ أَمام بيتِ الجيرانِ، كانَ أبرَزهم (أبو صالح)، الجار الأقرَب لمنزلِ أبي محمود، والذي سمعَ صوتَ مريمَ وهي تخاطبُ الجنودَ من خلفِ البابِ، ومحاولَتهم كسرَه، فهرولَ نحوَهُم:

- ماذا تريدُ يا (خواجة)؟ لا أَحدَ في البيتِ سوى امرأَةٍ!

- أخبرْها أَن تفتحَ البابَ، وإلا اقتحمنا البيتَ بالقوةِ.

قالَ الضابطُ المسؤولُ.

- افتَحي البابَ يا بُنيتي، لا تَخافي، أنا هُنا، عمك أبو صالِح.

سُرعانَ ما استَجابَت مريمُ لصوتِ جارِهم أبي صالح، وما إن فَتحت البابَ حتى أصبحَ الجنودُ في فناءِ البيتِ، سَأَلها ذلكَ الضابطُ عَمن دخلَ البيتَ قبلَ قليلٍ:

– لا أَحد، لم يدخلْ أَحدٌ، أَنا هُنا وحدي، والدي وإخواني في الأرضِ، وأنا أقومُ بأعمالِ البيتِ وحدي.

– أَلم يَمُر أَحدٌ من هُنا؟ هناك شابٌّ هربَ مِنا إلى هنا؛ بينَ هذين البيتين.

وأشارَ إلى منزلها ومنزلِ جارِهم أبي صالح، اللذين لا يفصلُهما سوى طريقٍ واحدٍ، بعرضِ ثلاثَةِ أَمتار.

وهنا تدخلَ أبو صالِح مرةً أُخرى:

– يا (خواجة)؛ هذَا بيتي، وبيتُ جاري أبي محمود، وهذِه (الحرمة) وحدها في البيتِ، ولا يُوجدُ غيرُها.

نظرَ الجنودُ إلى بعضِهم بعضًا، وفي أثناء ذَلكَ الحوار بَدأَت أعدادُ الناسِ تتكاثَرُ أَمامَ منزلِ أبي محمود، الأَمر الذي أثارَ في نفوسِ الجنودِ الخوفَ والريبةَ، حيثُ قاموا بإلقاءِ نظرةٍ سريعةٍ داخلَ الغرفِ المجاورةِ لِفناءِ المنزلِ قبلَ أَن يغادروا المكانَ بسُرعَةٍ، ولم يَصلوا مخزنَ المواشي.

في هذه اللحظاتِ؛ وصلَ والدُ مريم البيتَ، حيثُ كانَ معظمُ الجيرانِ قد غادروا المكانَ باستثناء جارِهم أبي صالح، الذي أَثنى عليه أبو محمود، وشَكرَه على موقفِه النبيلِ مع ابنتِه، ثُم دعاهُ لشُربِ فنجان قهوةٍ معه، لكن أبا صالح اعتَذرَ؛ لأنه أرادَ الاستعدادَ لِصلاةِ الظهرِ لِلذهابِ إلى المسجدِ.

***

بعدَ أَن غادرَ الجميعُ، واختلَت مريمُ بوالِدها وأشقائها؛ أخبَرَتهم بكُل ما جرَى معها، وقادَتهم إلى حيثُ أَخفَت الشابَّ.

قامَ أبو محمود بإزالةِ الحشائِش والحطبِ، وأكياسِ الدقيقِ والشعيرِ عن مكانِ وجودِ الشاب:

– اخرُج يا بُني، لا تَخَف، المكانُ آمِنٌ، تفضل.. خذوا لنا طريقًا يا ابني يا محمود.

ثم اقتادوا الشابَّ إلى غرفةِ الضيوفِ.

– مَن أنتَ يا بُني؟ وماذَا يريدُ منكَ هؤلاء المجرِمون؟

– أنا اسمِي (نورس طه) يا عَم، في الحَقيقةِ؛ منذُ بدايةِ انتفاضَةِ الأقصى وهم يُحاوِلون اعتِقالي دونَ جدوى، وهذا اليومَ كنتُ وأحَد الأصدقاءِ نسيرُ بمركبَتِنا إلى رام الله، حين فوجِئْتُ بحاجزٍ فُجائيٍّ في طريقِ سيرِنا، خرجتُ من السيارةِ بسرعةٍ، وهربتُ باتجاهِ هذهِ القريةِ، أَما صَدِيقي فَواصَلَ سيرَه لأَنَّهُ غيرُ مطلوبٍ، لكِنهم على ما يبدُو شاهدُوني وأنا أركضُ، وتبعَني عددٌ من الجنودِ الموجودينَ عَلى الحاجِز، ولا أعرفُ كيفَ وَجدتُ نفسِي أمامَ منزلِكُم.

– البيتُ بيتُك يا ابني، أَهلًا وسَهلًا بكَ.

ثم أخذ نورسُ يَتعرفُ إِلى أولادِ أبي مَحمود فردًا فردًا، وكذلك يُعرِّفُهم إِلى نفسِه وعائلتِه وبلده.

– من الآن فصَاعِدًا نحنُ أهلك، وهذا بيتُك الثاني يا ابني.

أضافَ أبو محمود.

– شرفٌ كبيرٌ لي يا عم، نعمَ الأهل أنتُم، ونعمَ البيت.

وبينما كانَ أبو محمود وأولادُه يتجاذَبون أطرافَ الحديثِ مع الضيفِ؛ جاءَ صوتُ مريم يطرقُ آذانَ (نورس)، ويَسكنُ قلبَه وعقلَه، وهي تخبرُ والدَها بأن الشايَ جاهزٌ.

– تفَضلي يا بُنَيتي، ادخُلي، أريدُ أن أقولَ لكِ شيئًا أمامَ الضيف.

دخلَت (مريم) والحياءُ يَعتَلي خدَّيهَا وعَينَيها، وَضَعت الشايَ على الطاولةِ أَمامَ الحاضرين، ثم قالَت موجهةً حديثَها لوالدها:

– هل تُريدُ مني شيئًا يا والِدِي؟

– نعَم يا بُنيتي، لقد قمتِ اليومَ بعملٍ رائِعٍ، والله إنكِ (بنت أبوكِ)، وأخت رجال، بارَك اللهُ فيكِ يا بُنيتي، وربنا يرضى عليكِ ويستر عليكِ.

– (أنا ترباية إيدك يا والدي)، أَنت علمتنا أن الوطنَ للجميعِ، وأَنا فخورةٌ أن لي أَبًا مثلك.

ثُم انحنَت، وقبَّلَت يدَ أبيها الذِي قبلَ رَأسَها، كما أثنى عليهَا أشقاؤُها، وهنا تدخَّل نورس قائِلًا:

– هذا المعروفُ وهذا الجميلُ دينٌ في رقبَتِي إلى يومِ القيامةِ يا ست (مريم)، أَنا فَخور اليومَ أنهُ أصبَحَ لي عائلةٌ أُخرى، وإخوةٌ جُددٌ.

ونظرَ إلى أولادِ أبي محمود.

– هذَا أقلُّ واجبٍ نقومُ بهِ تجاهَ مُناضلينا.

أَجابت مريم قَبلَ أَن تُغادرَ الغرفةَ.

***

مع مرورِ الأيامِ توطدَت العلاقةُ بينَ العائِلَتين، حيثُ قامَت والدةُ نورس وشقيقَته (إخلاص) بزيارةِ منزلِ أبي محمود، وتعرفَتا إلى مريم، حيثُ أُعجِبَت أم نورَس بجمالِ مريم وأخلاقِها، كذَلكَ قامت عائلةُ أبي محمود بردِّ الزيارةِ، وتوطدَت العلاقةُ أَكثرَ فأكثر، وكبرَ حُبُّ نورس في قلبِ مريم يومًا بعد يومٍ أكثرَ فأكثَر، كذلكَ أَصبَح نورس لا ينامُ ولا يصحو إلا على طيفِ مريم وصَوتِها، حتى عرضَت عليهِ شقيقَتُه إخلاص ذات يومٍ في أثنَاء زيارته للبيتِ أن تتحدثَ مع مريم في موضوع الخطبةِ والزواج؛ لمعرفَةِ رأيِها، وكذَلك استِشفاف رأيِ عائِلتِها.

كانَت العظَمةُ تتجلى في عائِلَتها التي أبدَت موافَقَتَها ورغبَتَها في مُصاهرةِ إنسانٍ مجاهدٍ ومقاومٍ مثلَ نورس، كذلكَ أَطلَعَتْ إخلاصُ مريمَ على الحب الكبيرِ، والعشقِ المريرِ الذي يكنهُ لها نورس، سرعانَ ما أدرَكَت أَنَّ هذا الحُب الفياضَ مشاعِرُ متبادلةٌ بين الطرفين، بعدَ أن أخبرَتها مريم عن مكنوناتِ قلبِها تجاهَ فارسها المُنتَظَر.

بعد أيامٍ؛ تقدمَت عائلَةُ نورس رسميًّا لخطبة مريم، حيثُ تمَّ عقدُ القرانِ، لكن تمَّ تأجيلُ الزفافِ حتى تهدَأ الأمورُ، وتبتعدَ

الأعينُ بعض الشيءِ عن نورس، لكن هذه الخطوةَ لاقت استِغرابًا من بعضِ أقاربِ مريم؛ كأعمامها وأخوالِها، ومعارضَةً للظروفِ التي يمُر بها العَريس، الذي من المُتوقعِ أن يُستَشهَد، أو يقعَ في الأسرِ في أي لحظةٍ، فهذا الرجلُ يحملُ روحَه فوقَ كفهِ، ما الذي يُجبرُ فتاةً في ريعانِ الوردِ من الشبابِ والجمالِ أن تقبلَ الزواجَ من المجهولِ؟! كما أنَّ صَديقاتِ مريَم كُن يعدنَّها مجنونةً ومتهورةً، ولا تُدركُ خطورَةَ ما أَقدَمَت عليهِ.

كانت صديقتُها المقربةُ (ميساء) تقولُ لها كُلَما أرادَت مداعَبَتها:

- أَهلًا بزوجةِ (الشهيدِ الحي)، وعروسِ الرجلِ الميتِ.

إلا أَن هذهِ المُداعبات والمُشاكسات لَم تثنِ مريَم عن مَوقفِها، كانَت دائمًا تجيبهم:

- نحنُ أسوياء جدًّا، علاقتُنا طبيعيةٌ جدًّا، حُبنا طبيعيٌّ جدًّا، لكن الاستِثناءَ في حياتِنا هو المُحتَل، الطارئون على أرضِنا وذكرياتِنا هُم هؤلاء الغُرَباء، وسوفَ يرحَلون، وأَنا ونورس سنبقَى نحلقُ في فضاءِ آمالِنا وأُمنياتنا، حتى نجتمعَ تحتَ سقفٍ واحدٍ.

كانَ نورسُ يزورُ مريم خفيةً بينَ الحينِ والآخَر، كانا يقضيان ذَلكَ الوقتَ القصيرَ في رسمِ صورةِ الأيامِ البنفسجيةِ الواعدةِ، التي تنتظرُ أَحلامَهم المُحلِّقَةَ في فرحِ المَساء، كانا يَشتاقان لبعضِهما بعضًا، وكفُّه تعانقُ عطرَ كفِّها، وعيناهما ترسمان الآخَر فوقَ وجهِ الشمسِ،

إلا أَن الفرحةَ بتوقيتِ الزمن الفلسطيني قصيرةٌ جدًّا، فلَم تمضِ إلا بضعةُ أسابيع حتى وقعَ نورَس في الأَسرِ، حيثُ كانَت عيونُ الجبناءِ تترصدُ طلتَهُ الثائرَةَ، تنصبُ لهُ كمينًا محكمًا؛ ليُصبحَ حبهُ في مهبِّ الريحِ، وتصبحَ أحلامُهُ تحتَ رحمةِ حقدِ هؤلاء القَتَلَةِ، لكن مريمَ تبقى مريمَ في كل زمانٍ ومكانٍ، نخلةٌ صامدةٌ، زهرُ بنفسج، نارٌ في حجمِ البركانِ، كانَت تردُّ على كل مَن يُعاتبُها على خطوتِها تلكَ بثباتٍ وسكينةٍ:

– سأَنتظرُ مهما كانَ الزمنُ والثمنُ، سنتزوجُ، وسننجبُ أطفالًا أكثر، لن ينالوا مِنا، لن يَنالوا مِن حُبنا.

***

مَرَّت أيامٌ صعبةٌ على نورس قبلَ أَن يُنهي التحقيقَ، ويتم نقلُه إلى قسمِ الخيامِ في سجنِ (عوفر) القريبِ من رام الله، ومن عبيرِ عطرِها، لا يَدري ماذَا يَفعلُ:

– هَل من المعقولِ أَن يكونَ هذا السجنُ نهايةَ المطافِ ونهايةَ الينابيعِ الساريةِ إلى قلبِها؟ هل من المُمكن أن يموتَ الحبُّ في هذا المكانِ؟ إن كانَ هناكَ من موتٍ أَعتقدُ أنهُ يجبُ أن يكونَ في مكانٍ آخَر، ليسَ هُنا، هذَا مؤكدٌ، نعم؛ ليسَ هُنا، لن أستَسلمَ، لا بد من مخرجٍ، يجبُ أن يكونَ هُناكَ عملٌ ما، لا يجوزُ الاستسلامُ الآنَ وفي هذا التوقيتِ القاتلِ.

بينَما كانَ في حالةِ عناقٍ مع طيفِها؛ لَم يقطع عليهِ خلوتَه سوى ابنِ شقيقَتِه الصغير (جهاد)، الذي اعتُقِلَ معه، وصديقه المُقَربُ (ليث).

– هناكَ مخرجٌ يا خال!

قالَ الشبلُ الصغيرُ (جهاد)، وهُنا تهَللَ وجهُ نورَس، وأخذَ يسأَلُ بشغفٍ:

– كيفَ؟ كيف؟

يُرَددُها بلهفةٍ كمن أصابَهُ مسٌّ مِن جنونٍ، وهُنا أخذ جهاد وصديقه ليث يخبرانِه بقصةِ النفقِ الذي يتِم حفرُه في الخيمةِ رقم 8، وشارَفَ على الانتهاء.

– يعني ما هي إلا أيامٌ يا خال، وسَتكونُ خارجَ هذهِ الأسوارِ.

فما كانَ منهُ إلا أَن أخذَ يُقبلُ الرَّجُلَين بصورةٍ جنونيةٍ وفرحةٍ عارمةٍ:

– بالله عليكما! هل تَتحَدثَان جديًّا أَم تمزَحان؟

– جدَ الجَد يا خال، إن لَم يحدُث طارئٌ فسَوفَ يهربُ نصفُ القسمِ إن شاءَ اللهُ، لا تَقلق يا خال.

عادَ الأملُ إلى قلبِه من جديدٍ، بدَأ يُعدُّ قائمةَ المدعُوينَ للزفافِ، هذه المَـرَّة لَن يُؤَجلَ أبدًا، بدَأت صورتُها الرائعةُ بثوبِ الزفافِ الأبيضِ تتراقصُ أَمامَ خيالِه، كأَنها طيفُ ملاكٍ، بدَأ يبحثُ في عبابِ ذاكرتِهِ عن صالةِ أفراحٍ، لا بُد أن تكونَ كبيرةً وجميلةً تليقُ بسيدةِ

الحُسن والجَمال، حتى لو كانت وحدها سَتجلسُ في (الكوشة)، لا بُد من إيجاد منزلٍ آمنٍ بعيدٍ عن أَعينِ الجُبناء، ويَجبُ أن يكون له مداخلُ ومخارجُ عديدةٌ خشيَةَ أي طارئٍ، بدَأ يُعدُّ لزواجِه كأنهُ يعد خطةً عسكريةً، يُدونُ أسماءَ المدعُوِّين، ثُم يشطبُ هذا ويَمحو ذاكَ، ثُم يقررُ أن يكونَ الزفافُ على نطاقٍ ضيقٍ لدواعٍ أمنيةٍ.

كانَ يُمارسُ سياسَةَ التفكيرِ بصوتٍ مرتفعٍ، بينما ليث وجهاد يراقبان فرحتَهُ أحيانًا، ويُشاكسانه أحيانًا أُخرى.

❊❊❊

بعد ثلاثةِ أيامٍ؛ كانت صَافراتُ الإنذارِ تُدَوِّي في أرجاءِ السجنِ، تزفُّ نبَأَ هروبِهِ برفقةِ ثلاثَة أَسرى آخَرين، هُم الذين لاءَمَت أجْسادُهم حُفرَةَ النفقِ الضيقةَ، ولَم يتِم اكتشافُ الهروبِ الكبيرِ إلا ساعَات الصباحِ الباكِرِ، في أثناء العَددِ الصبَاحِي، حيثُ فُقِدَ أربعة أَسرى من الخَيمةِ رقم 8، وبعدَ إجراءِ التفتِيشِ داخِلَ القسمِ؛ تم العُثورُ على النفقِ، والتأكُّدُ من هويَّةِ الهارِبين، وهم نورس، وليث، وجهاد، إضافةً إلى شابٍّ آخر من مدينةِ جنين.

في هذِه الأثناء وصلَ نورس ورفاقُه إلى منطقةِ (العطرانة)، الواقعةِ في جبالِ قريتِهِ، جنوب غربِ المدينةِ، التي تكثُرُ فيها المغر والجبالُ الوعرة، قررَ نورَس أن يجعلَها مقرَّ قيادتِهِ العَسكرية، ومملَكتَه الخاصةَ، ودرعَهُ الحصين، بينما تسللَ جهاد وليث كلَّ ليلةٍ

إلى أطرافِ البَلدةِ؛ لإحضارِ الطعامِ والشرابِ.

كانَ نورس مُتلهفًا للقاءِ وجهِ مريمَ الصبوحِ، فلَم يُقدم على ما أقدمَ عليهِ إلا من أجلِها؛ لأنها أصبَحت جزءًا من الوطنِ الذي يُدافعُ عنهُ، وجزءًا من قَضيتِهِ الوطنيةِ، ومثواهُ الأخيرَ؛ لذَلك بدأَ يُخططُ للقائِها، خاصةً بعدَ أن علمَ أن قوةً من جيشِ الاحتلالِ داهمَت منزلَها، وعاثَت فيه فسادًا وخرابًا في أثناء محاولاتِ البحثِ عنهُ، فكانَ القلقُ سيدَ الموقفِ، والأرقُ والشوقُ يُخيِّمان فوقَ سماءِ المكانِ، حتى تكفَّلَ ليث وجهاد بترتيبِ اللقاءِ بينهما، وقاما بإعدادِ خُطةٍ لذَلِكَ، حيثُ أطلَعوا نورَسًا عليها، فوافقَ دونَ تَردٍ.

بعدَ منتصفِ الليلةِ ذاتِها؛ كانَ جهاد ابنُ شقيقَةِ نورس يَطرقُ شُباكَ مريَم، وأطلَعها على تفاصيلِ خطةِ اللقاءِ بنورس، والإجراءاتِ التي ينبغي عليها اتباعُها لتفادي عيون الاحتِلالِ، التي كانَت تترَصدُ حرَكتَها.

كانَت مريم في اليومِ التالي تحثُّ الخُطى إلى مدينةِ رام الله، بعدَ أن استقلَّت سيارَةَ أُجرةٍ نقلَتها من قريَتِها إلى المدينَةِ، وحينَ وصَلت دوارَ المنارَةِ استقَلَّت سيارةً أُخرى أوصَلَتها إلى أَحد المُجَمَّعاتِ التجارِيةِ، قامت بجولةٍ على معظمِ المحلاتِ التجاريةِ داخله، في يدها كيسٌ يحملُ اسمَ أَحد المحلاتِ التجاريةِ لبيعِ الملابسِ الجاهزةِ، ولَـمْ يلحظْها أَحدٌ عندما خرجَت من الباب الخلفيِّ للمُجمع.

كانت سيارَةُ أجرةٍ بانتِظارها، سرعانَ ما طلبَت من السائقِ أن يقلها إلى جامعةِ بيرزيت بعدَ أن جلسَت في المقعدِ الخلفي، انطلقَ السائقُ دونَ أن ينبسَ ببنت شفة، ولم يكُن هذا السائقُ سوى جهاد.

حين وصَلت جامعَةَ بيرزيت دخلَت مبنى كليةِ الهندَسةِ نحوَ المصعدِ الذي قادَها إلى أحد الطوابقِ العُليا، حيثُ حَمام الطالبات، بعدَ دقائِق خرجَت سيدة منقبَة مجللة بالسوادِ من أخمص قَدَميها حتى رَأسِها، ومِن ثم سارَت نحو كليةِ الآدابِ، إذ يَتعذرُ على أحدٍ أَن يُميزَها الآنَ.

أمام الكليةِ؛ كانَ بانتظارِها رجلٌ يرتدي القمبازَ الفلسطينيَّ، والكوفيةَ، والعقالَ، إِضافةً إلى نظارةٍ سوداء تُغطي نصفَ وجهِهِ، وما إن رأى تلكَ السيدةَ المنقبَةَ حتى سارَ باتجاهِ البابِ الرئيسِ إلى خارجِ الجامعةِ، توقفَت هناك سيارة أجرة كانت بداخلها امرأةٌ أخرى مجللة بالنقابِ الأسوَدِ، جلَسَت مريم إلى جانبها، وجلَسَ الرجلُ إلى جانبِ السائقِ، الذي انطلقَ إلى قريةِ نورس، في الجنوبِ الغربيِّ من المدينةِ، حتى وصَلا أحدَ المنازِل في أطرافِ القريةِ، ترجَّلَ رُكابُ السيارَةِ، واختَفوا داخلَ البيتِ.

أَزالَ الرجلُ الكوفيةَ والعقالَ، ولم يكن هذا الرجلُ سوى ليث، كذلك كشفت المرأة عن وجهها، وكانَت زوجَةَ خالِ ليث (أم نضال)، التي رحبَت بمريمَ بحرارةٍ بالغَةٍ، وبذلكَ نجحت خطةُ

ليث وجهاد بإحضارِ مريم إلى منزلِ خالِ ليث.

- متى سيحضُر؟

سَألَت مريم والشوقُ والقلقُ يسيطران على عينَيها، ولم تكمل سؤالَها حتى كانَ نورسُ يخترقُ درجَ الطابقِ العلوِيِّ، إلى الصالونِ الرئيسِ في الأسفلِ ببطءٍ، كأَنهُ أرادَ أن يرى جمالَ خوفِها وقلقِها، وهي تقفُ فوقَ جمرِ الانتظارِ، وما إن استدارَت حتى كانت ابتسامَته السمراء تُكحلُ عينَيها، صَرخت:

- نورس!

ثُم أسرَعَت نحوهُ لتُلقي بكاملِ فرحِها في سلَّةِ شوقهِ، وأحضانِ عشقِه، احتواها حدَّ التوحدِ فيهَا، حتى أصبحا كأنهما جسدٌ واحدٌ، ولَم يقطع هذا المشهدَ العِشقِي سوى جهاد:

- نحنُ هنا يا خال، نريدُ التحدثَ في المُهم والمُفيدِ.. لا وقتَ لدينا.. الضرورةُ الأمنيةُ لا تسمحُ بوجودكَ هنا كثيرًا.

قالَ بشيءٍ من الدعابةِ.

- أتفقُ معكَ أخي جهاد.

قالَ ليث مُؤكدًا كلامَ جهاد. جلسَ الأربَعةُ في غرفةِ الضيوفِ، كان نورس ومريم يجلسان على المقعدِ المُقابلِ لمقعد ليث وجهاد، بينما ذَهبَت أم نضال لإعداد الشاي، وبقي جهاد يتفقدُ المداخلَ والمخارجَ المؤديَةَ إلى البيتِ، من خلالِ نوافذ المنزلِ بينَ الفينةِ والأُخرى.

– اسمعي يا حَبيبَتي؛ أَنت تعلمين أن قرانَنا معقودٌ منذ زمنٍ، ونحنُ في حكمِ الشرعِ متزوجان، لكن في حكم العرفِ والتقاليدِ فلا يكونُ ذَلكَ إلا بالإشهارِ بالعرسِ والحفلةِ والفستان الأبيَض، وأَنا أرى أنه لا وقتَ لَدينا للتأجيلِ هذِه المرةَ، أريدُ أن أقومَ بإتمامِ مراسم الزواجِ؛ لتَعرفَ الدنيا كُلهَا أنكِ أصبَحتِ زوجَتي، ثم نتدبرُ منزلًا في أي مكانٍ بعيدًا عن العيونِ، وأزورك مِن حينٍ لآخَر، المهم موافقَةُ والديكِ وعائِلتك هذِه المرةَ.

– لا تقلقْ بشأنِ عائلَتي، فقد قبلوا بكَ في المرةِ الأولى؛ فلن يكونَ هناكَ مانعٌ الآنَ، ثم إن الأَمرَ يخُصني أنا، هذِه حياتي.. ووالدايَ لم يعوداني أن يرفضا لي طلبًا يخُص حَياتي، افعَلْ ما تَراهُ مناسبًا، وأنا معكَ حتى الموت.

– روحي فداؤُكِ يا غالِيَة.. أبعَدَ اللهُ عنكِ كُل شرٍّ..

وهُنا تدخلَ ليث، بينما جهاد يتفحص الطرقَ من إِحدى النوافِذ، على بُعدِ أَمتارٍ مِن مجلس الحديثِ:

– ماذا تقترحُ يا نورس؟

– أقترحُ أن نستأجرَ صالَة أفراحٍ، ونحدد الفرح بعد التشاورِ مع عائلَتينا، ثم نطبعُ بطاقاتِ الدعوةِ، وندعو الناسَ كأي عرسٍ طبيعي، ونقومُ بإتمام مراسم الحفل، بحيثُ تجلسُ العروس في (الكوشة) بكاملِ زينتها وفستانها الأبيَض، وبعد الحفلةِ تُقيم مريم

هنا عند خالَتي أم نضال، ثم نستأجرُ منزلًا في المدينةِ، أو في أي مكانٍ آمنٍ، وأقومُ بزيارَتِها بينَ الفينةِ والأُخرى.

– لكن من الصعبِ الآنَ استئجارُ الشقق في هذهِ الظروفِ، (الدنيا مقلوبة علينا)، الأمرُ ليسَ بهذِه السهولةِ.

قالَ ليث، وأيدَهُ جهاد. نظرت مريمُ في وجهِ الجميعِ ثُم قالَت:

– وهل تَعتقدونَ أنني من المُمكِن أن أوافقَ على ذَلِكَ؟ أَنتظر حتى يزورَني بين الفينةِ والأُخرى؟ لا.. بعد إتمامِ مراسمِ الزواجِ والحفلة، ومغادرَةِ صالةِ الأفراحِ؛ أذهب معكَ إلى حيثُ تكونُ، أنتظرُ هنا عند خالَتي أم نضال فقط في أثناء النهار، أما في الليلِ فأنا معك، في الجبل.. في المغارةِ..

نَظرَ الجميعُ إلى وجوهِ بعضِهم بعضًا مندهشين من كلامِ مريم، خيَّمَ هدوءٌ فوقَ المكانِ لثوانٍ معدوداتٍ، ثم قالوا بصوتٍ واحدٍ:

– في المغارة؟! أَتتزوجين في المغارَة؟

رددَ ليث العبارَةَ مندهشًا.

– نعم؛ في المغارَةِ، سَأكونُ مع زوجي حيثُ يكونُ.

حسَمَت مريمُ أمرَها، وسط اندهاشِ نورس وجهاد وليث وأم نضال، التي سمعت شظايا حديثٍ في أثناء تقديمها الشايَ لهم، أضافَت مريم:

– أنا سوفَ أُحددُ الموعدَ مع أهلي، وأُخبرُهم بما عزمنا عَليهِ،

وأَنتَ ستحضرُ إلى شُبَّاكي كما حضرتَ هذهِ المرةَ.

أشارَت إلى جهاد بإصبعها، ثم استَدارَتْ بوَجهِها نحوَ نورس، وأضافَت:

– وهو سوفَ يُخبرُك بالرد النهائيِّ للعائلةِ، على الرغمِ من أنني متأكدةٌ أنهم لَن يُمانِعوا.

– لا أعرفُ ماذا أقولُ لكِ! لكنني أنحني إجلالًا وإكبارًا لهذَا الموقفِ القلبي والثوري الرائع.

ردَّ نورس.

– لا تقُل شيئًا، أنا زوجَتُك، ويجبُ أن أكونَ إلى جانِبكَ، ثم حانَ وقتُ الذهابِ الآنَ، اهتموا بأمرِه، وحافظوا عليهِ.

قالَت مريم موجهَةً حديثَها لليث وجهاد.

– ثم تفَضلا.. ليُوصلَني أحدكما إلى المدينةِ الآن.

ثُم وقفَت تستأذِنُ للرحيلِ.

– بعدَ أن يُعطونا عشرَ دقائق على انفرادٍ يا حَبيبتي.

قالَ نورَس، ثم سَحبَ كَفها، وأجلَسَها إلى جانبِه مرةً أُخرى، وسرعان ما غادرَ ليث وجهاد المكانَ إلى فناءِ المنزلِ وهما يَبتَسمان.

***

– هل فقدتِ عقلَكِ يا صديقَتي؟ لم أعهَدْكِ هكَذا تنقادينَ إلى مشاعرِكِ وعواطِفِك، أتتزوجينَ في مغارةٍ؟ أنا لا أُصدقُ ما أسمعُ!

بهذهِ الكلمَاتِ المتعجبةِ والمُستغربةِ خاطبَت ميساء صديقَتها مَريمَ، عندما علمت أنها سوفَ تقومُ بإتمامِ مراسمِ الزواجِ، وتذهَب مع زوجِها إلى الجبالِ والمغر، حتى إن أمَّ مريم التي لم تعترضْ على كلام ابنَتِها؛ طلبَت منها التفكيرَ مرةً أُخرى في الأَمرِ.

لكن مريَم كانت قَد حسَمَت أمرَها، وشرعت بتوزيعِ بطاقاتِ الدعوَةِ على صديقاتِها وبناتِ قريَتِها، وقد اتفقَت العائلتان على أن يكونَ العرسُ يوم الخميسِ القادم، في إحدى صالات الأفراحِ الكبيرَةِ في مدينَةِ رام الله، وبَدأت كُل عائِلةٍ تَدعو أصدقاءَها، وأقرباءَها، وأبناءَ قريَتِها إلى العرسِ الموعودِ، وبَدأ نورس يجهزُ نفسَه، ويُراجعُ تفاصيلَ خطةِ تأمينِ العرسِ، ووصول مريمَ إليهِ برفقةِ جهاد وليث.

- بعد الفرحِ مباشرةً تصطحبان العرُوسَ إلى منزلِ أُم نضال دونَ أَن يلحَظَكما أحدٌ، وبعدَ الغروبِ سوفَ أحضرُ وأصطحبُها إلى هُنا، وأنتما ستذهَبَان إلى الجبلِ المُقابِلِ لتَأمينِ المنطقةِ، وتبيتان هُناكَ، هل هذا واضحٌ يا شباب؟

قالَ نورس، فَأجابَ ليث:

- نعم؛ واضحٌ، لكن أينَ سَتبيتُ مع العروسِ؟

- لقد وجدتُ في ذلكَ المنحدرِ (منطرة)، عبارة عن مغارةٍ صغيرةٍ تتسعُ لشَخصين، وهي مرتفعةٌ، بحيثُ تستطيعُ أن ترى

سفحَ الجبلِ وَالمنطقَةَ بأَسْرِها.

***

في اليومِ الموعودِ؛ بدَأت النسوةُ بالترجلِ من الباصاتِ إلى القاعةِ الرئيسَةِ في صالَةِ الأفراحِ، حيثُ وصَلَت العروسُ للتو من أَحدِ صالوناتِ التجمِيلِ في المدينَةِ، كانت (الكوشَة) جميلَة جدًّا، مزينةً بالورودِ البيضاء، جلسَت مريم على أحد الكراسي، وبقي كرسي العريسِ فارغًا، كان صوت الطبلة (الدربكة) يعلو على أصواتِ الأغاني التراثيةِ التي تؤديها النسوَةُ في مثلِ هذِهِ المُناسباتِ، ثم أخذَت صديقاتُ العروسِ وقريباتُها يتقدمنَ منها، ويُصافِحْنَها، ويبارِكنَ لها، في هذِه الأثناء؛ كانَت إخلاص؛ شقيقةُ نورس، عروسًا أُخرى في الحفلِ، تقدَّمت من مديرَةِ الصالةِ، وطلَبَت منها (المايكريفون)؛ لمخاطبَةِ الحضورِ، استَأذَنَت الجميعَ، وطلَبت من العروسِ التوجهَ إلى غرفةِ التصويرِ لالتقاطِ صورٍ عائليةٍ مع ذَويها، ثم العَودَة لإكمالِ العرسِ، وبالفعلِ، توجهت العرُوسُ إلى إحدى الغرفِ الجانبيةِ، لكنها بدلَت ملابسَها، وارتَدَت النقابَ الأسودَ مع سِت فتياتٍ أُخريات، بحيثُ أصبَحَ من المستحيلِ التمييزُ بينهن، ثم خرجْنَ، وتوجهت كُل فتاةٍ منهن إلى سيارةِ أُجرةٍ خاصةٍ بها، وغادرْنَ المكانَ، كُل سيارَةٍ باتجاهٍ مختلفٍ، لقد غادَرت ستُّ منقباتٍ، في ست سياراتِ أجرةٍ، إلى سِت اتجاهاتٍ مختلفةٍ.

وصَلت مريمُ منزلَ أم نضَال، القريب من منطقَةِ (العطرانة)، وما إن فتَح ليث بابَ السيارَةِ؛ حتى استَقبلَتها أُم نضال بالقُبُلاتِ الحَارةِ.

***

خَيَّمَ الليلُ علَى المَكانِ، وانتهَى عرسُ ذَلكَ اليومِ، وأودت الأجسادُ المُتعبةُ إلى فِراشِها الدافِئِ، وغادَرت نساءُ القريَتين إلى مخادِعِهنَّ، لَم يعلمن كيفَ دخلَت العروسُ إلى القاعةِ، ولا كيفَ غادَرَتْها واختفَتْ، وحدهُ نورس كانَ يمتَشقُ بردَ الليلِ وعشقَ بندقيتِه وينتظرُ، بينَما كانَ صوتُ الكلابِ والذئابِ يخترقُ هدوءَ ليلِ الجبالِ المُجاورةِ، وما هي إلا لحظات حتى كانت الإشارةُ المتفقُ عليها بين نورس وليث وجهاد تصدرُ عن ليث، (ومضتان مِن مِصباحٍ يَدوِي باتجاهِ نورس، ثُم رد الأَخيرِ بِوَمضَتين مُشابهَتين)، إذن؛ تم الإعلانُ عن قدومِ العَروس! تقدَّم العريسُ نحوَ الأشباحِ الأربعةِ التي تخترقُ ظلامَ الليلِ نحوَه:

- شُكرًا لكم يا أحبتِي.. شُكرًا لكِ خالَتي أم نضال.. أتعبتُكُم معي.

قالَ نورس مُرَحبًا بالضيوفِ.

- تعبكَ راحةٌ يا صَديقي.

قالَ ليث، وأضافَ جهاد:

- مبارك يا خال.

- إن شاءَ الله تتهنى يا ابني، هذِهِ العروسُ الآن عندك، وهذا

طعامٌ يكفي ليومين، بعد يومين أُرسلُ لكَ مثلهُ حين تنزلُ مريم من الجبلِ.

قالَت أم نضال. ثُم غادَر الجميعُ، ولَم يبقَ إلا نورس وعرُوسُه مريم.

اصطحبَ نورس عروسَه إلى مغارَةِ ليلَةِ العمرِ.. في جبلِ ليلةِ العمرِ.. في تلكَ الليلَة؛ كانَ هُناكَ صوتٌ لا يُعرفُ مصدرُهُ، سَمعَه كلُّ مَن عرفَهما، سَمعتهُ أم نضال، وسَمعه ليث، وسمعه جهاد، وسيسمعه المدعوونَ إلى صالَة الأفراحِ فيما بعد، صوتٌ لا يُشبهُ صوتَ فيروز.. وغناء لا يُشبهُ الغناءَ.. وألحانٌ لا تُشبهُ الألحانَ.. وكلماتٌ لا تشبهُ الكلماتِ.. شيءٌ لا يُشبهُ إلا مريم ونورسًا! قمران يكبران في مغارةٍ لا تحوي سوى الأنبياء والأَولياء.. ووجهَان يبكيان تحتَ قبةِ السماء.. يُسبِّحان بحمدِ ربِّ عذراء المساء.. ونجمان يُزهران في عطرِ الأنبياء.. كانَت هناكَ أيقونةُ العذراء تُغني.. والغِناء رثاء.. العرسُ في المغارةِ.. نورس ومريم وجهان يَضحكان.. في الصباح الباكرِ كان هُناكَ فلاحٌ في مكانٍ ما، يبذرُ الأرضَ بالقمحِ.. فتحبلُ بالسَّنابل.

***

منذُ بواكيرِ أيامِها في عُش الزوجيةِ؛ اعتادَت مريمُ هذا النمطَ مِن الحياةِ، تنزلُ من الجبلِ مع ساعاتِ الفجرِ الأولى إلى منزلِ أُم نِضال، ثُم تُغادرُ ليلًا مع نورس إلى مخدَعِها الجديدِ في الفَضاءِ

الرحبِ، يفترشان الأرضَ، ويلتحفان السماءَ، ومع ذَلكَ كانا أسعَدَ زوجَين فوقَ هذِه البسيطةِ، إلا أن أوقات فرحنا في فلسطينَ الحزينةِ تظَل مسروقَةً من وقتِ الفرحِ المُستقطعِ.

ذات يومٍ؛ شعَرَت مريم ببعضِ الغثيانِ، والدورانِ في الرأسِ، والتقيؤِ المُستمر، الذي لا يُفارقُها، فأصر فارس أن تَذهبَ إلى منزلِ أُم نضال لترتاحَ قليلًا من بردِ الجبلِ، ولتُراجِعَ طبيبًا، رفضَت مريم الامتِثالَ لطلبِه في البِدايةِ، إلا أنهَا وافقَت بَعد أَن استَحلفَها بِحُبها لهُ، لم تستطع أن ترفضَ لهُ طلبًا حينَ وصلَ إلى هذِه النقطةِ الورديةِ من قلبِها.

انضم جهاد وليث إلى نورس في الجبلِ في تلكَ الليلَةِ، كانَ يشعرُ أن هُناك خطبًا ما سيَحدثُ، لَم يكُن الهدوءُ والسكونُ في تلكَ الليلةِ طبيعيًّا، وبالفعلِ.. كانَت طائراتُ الاستِطلاعِ ترقبُهُ، وتعدُّ عليهِ حَرَكاتِه، فطلبَ من رفاقِه التفرقَ هذهِ الليلَةَ، وأن يتدبرَ كلُّ واحدٍ منهم مكانًا مُنفردًا ينامُ فيهِ، حتى لا يقَعوا معًا فريسَةً سهلةً في فَكِّ العَدُوِّ.

غادرَ ليث وجهاد كلٌّ إلى وجهتِهِ المختلفَة، وبقيَ هو على أهبة الاستعدادِ مُمتَشِقًا سلاحَهُ، وبيتُ النارِ يَتأهبُ للإطلاقِ، وما إن انتصَفَ الليلُ؛ حتى بَدَأت كلابُ الظلامِ تُطبِقُ على المكانِ، أُلقِيَ القبضُ على ليث وهو يُغادرُ إلى الجهةِ المُقابلَةِ للجَبلِ، انقَضوا علَيهِ بسرعَةِ الريحِ، كَمَّموا فمَه كي لا يُصدرَ أي صَوتٍ، والأَمْر ذَاته

فَعَلوهُ مع جِهاد، الذي وقعَ في أيديهم أيضًا في أثناء محاولته اجتِيازَ سَفحِ الجبلِ.

كانَ ليلُ القَتَلَةِ حالِكَ السواد، يتقَدمونَ بِبُطءٍ، هو لا يراهُم، لكنهُ يشعرُ بحرَكَتِهم، بدَأت القَنابلُ المُضيئَةُ تُشعلُ ليلَ المنطقةِ، ومُكبراتُ الصوتِ تُطالبُه بالاستِسلام، لكنَّ رَدهُ أَتى سريعًا، إذ أَطلقَ العنانَ لنارِ بندقيتِهِ لتُجيبَ، استَمر الاشتِباكُ حتى الفجرِ، حينَها حلَّقَ نورَس في سَماء الشُّهَداءِ.

في اللحظةِ ذاتِها؛ كانَت أُمُّ نِضال قَد أحضَرَت (الدايَة) أُم العبد لفحصِ مريم، أخبرَتها أن هناك نورَسًا آخر يكبرُ في أحشائِها، ابتسَمَت، وذَرَفَت دمعة انسابَت على خدها كحبةِ لؤلُؤ.

في ذَلكَ الفجرِ الأحمَر، كانَ هُناكَ شاعرٌ ما.. في مكانٍ ما.. يرسُمُ خارطَةَ دماءِ قَصيدَتِهِ.. أَمامَ دموعِ مغارَةِ المسيحِ المَذبوحِ.. والعَذراء الحُبلَى بالنيازِكِ والشُّهُب.. لم تكُن القصيدةُ للمسيحِ الرضيعِ.. بل كانَت (لرياض) الطفل، و(رياض) الشهيد.. لم تكن القصيدَةُ لمريَم بنتِ عِمران.. بل كانَت لمَريم بِنت كنعان.. والقِديسَة فاطِمة.

طوقُ الكَرَامَةِ

بدا الحزنُ واضِحًا على وجهِ أَحلامِهِ، جلسَ قربَ البابِ أمامَ منزلِهِ، كانَت الحيرَةُ قَد سيطرَت على آخر خطوطِ دفاعاتِهِ، زوجَتُهُ تَجوبُ ساحةَ الدارِ ذهابًا وإيابًا، تقومُ بأَعمالِ المنزِلِ كالمعتادِ، كَأن شيئًا لَم يَكُن، لا يشعرُ بشيءٍ يدورُ حولَه، حتى انتَهت زوجَتُه من نشرِ غسيلِها للتوِّ.

أَولادُه الأربَعَةُ يلعبونَ حولَه بكُرةٍ مصنوعةٍ من القُماشِ البالي، يركضونَ حولَ بعضِهم بعضًا، لا يُعكرُ صَفوَهم شيءٌ، لا حديث الحَربِ، ولا أَحادِيث ما جَرى ويَجري في القُرى المُجاورةِ لقَريتِهم، سؤالٌ واحدٌ يدورُ في رأسِهِ فقط؛ كيفَ سَيتدبرُ أمرَه؟ هو ليسَ بأَقَل من خيرةِ رجالِ القريَةِ، على الرغمِ من ضيقِ الحال استطاعَ كثيرٌ منهم تدبرَ أَمرِهم، فكرَ أن يبيعَ دونمَ الأرضِ الذي ورثَهُ عن والدِته، لكن ما فائِدَةُ ما عزمَ عليه إِذن إن كان الشيءُ الذي سيُدافعُ عنه سوفَ يضيعُ، فكرَ في بديلٍ آخَر غير بَديلِ الضيَاعِ..

– لا أريدُ أَن أَسمعَ هذِه الكلمةِ، إِن كانَ لا بُد من ضياعِ أَحدٍ فليَكُن هؤلاء الأغراب، فليَذهَبوا إلى الجحيمِ، وليعودُوا من حيثُ أَتَوا.

فَكرَ في الاقتراضِ من مُيسوري الحالِ، لكن كَيفَ سيسددُ لهم في هذهِ الظروفِ، فالحالُ واقفٌ على كَفٍّ عفريتٍ، ولا أَحد يَزرعُ ولا يقلعُ ليُسددَ على الموسمِ كما اعتادَ أَهلُ قريَتِه آنذَاك، خطرَت لهُ فكرةُ بيعِ البيتِ، لكن أَينَ سيذهبُ بزوجتِهِ وأطفالِه، بل أَين سيذهبُ بوالِديهِ العجوزين، في نهايةِ الأَمرِ عدلَ عن هذِه الفكرةِ أَيضًا، لكن ماذا سيفعلُ؟ لا يمكنُ أَن تُغلقَ كُل الأَبوابِ، لا بُد أَن يكونَ هناك حَلٌّ ما.

في تلكَ الأَثناءِ، وبعد أَن انتَهت من أعمالِ البيتِ؛ لاحظَت زوجتُه حالَةَ الشرودِ والسرحانِ البَادية على ملامِحِهِ، كَأنها سَمعت صوتَ تَفكيرِه عاليًا، اقتربَت منهُ، جلسَت إِلى جانبِه، سَألتهُ عما يُشغلُ خاطرَهُ، حاولَ التهربَ منها، لكنها ظَلت تشُدُّ من أَزرهِ وتُواسيهِ، وتتقربُ وتتوددُ لهُ، حتى أخبرَها بنيتِهِ وبِما يريدُ، فأَثنت عليهِ وشَجعتْهُ، لكنهُ أَخبرَها بضيقِ الحالِ؛ لأَنه في هذه الظروفِ الصعبةِ يتعذرُ عليهِ توفيرُ المبلغِ المطلوبِ لشِرائِها، خاصةً أن الرجلَ الذي لَديه مطلبه يريدُ سعرًا مرتفعًا، هوَّنَتْ عليهِ الأمرَ:

- لا تقلق، سوفَ تُفرَجُ إِن شاءَ اللهُ.

استَأذَنتهُ للحظةٍ، دخلَت غرفتها، فتحت صندوقَ ملابسِها، وتناولَت الطوقَ الذهبِي الذي أَهدتها إياهُ والِدَتُها يومَ عرسِها، كانَت جدتُها قد قدمتهُ لوالدتِها في مثلِ تلكَ الليلةِ، خرجَت إليهِ في

يدِها الطوقُ، وقدمتهُ إليهِ.

– هذا كما تعلمُ أَهدتني إياهُ والدَتي يومَ عُرسِنا، وكُنت أدخرُه للأيامِ السودَاء، وقد حانَ الوقتُ، لن يَأتي علينا أسوَدُ من هذِهِ الأيامِ، اذهبْ واشترِ ما تريد، وكُن على رأسِ الرجالِ.

رفضَ قبولَه منها، قالَ لها يَومَها:

– لَستُ أَنا الذي يَأخُذُ مالَ زوجتِه.

استَحلفَته أَلا يرُدها خائِبَةً.

– لا يُوجد ما يقسمُ بين الرجلِ وزوجتِه، مالي مالُك، ثم عُدهُ دَينًا، حتى تُفرَجَ الأمورُ وتُعيده لي.

– لكِن رائِحَة والدَتِك في هذا الطوقِ، وأَنا لا أطيقُ التفريطَ فيهِ.

قالَ لها بحُزنٍ عميقٍ.

– إذَا كانَت البلادُ في مَهَب الريحِ وهي الغاليةُ، فلا أسفَ على الرخيصِ يا رجُل!

نهضَ من مقامِهِ، قبَّلَ رأسَها، ثم مَضى إلى بغيَتِهِ، كان يَطوي الأرضَ تحتَ قدميهِ في طريقِه إلى منزلِ صاحبِ العَصارةِ، بعد لحظاتٍ وصلَ إلى بابِهِ.

– لقَد أحضرتُ لكَ المالَ، أريدُ الغرضَ الآن.

– هل أَنتَ مُتأكدٌ؟

سَأَلَ الرجلُ باستغرابٍ وهو الذي يعرفُ حالَهُ جيدًا. أَخرَجَ

الطوقَ الذهَبيَّ من جيبِهِ، ثُم قدمَه لهُ، ابتسَم صاحبُ العصارَةِ دونَ أن ينطقَ ببنتِ شفةٍ، دخلَ إلى إحدى الغرفِ المُجاورةِ، أحضرَ كيسًا في داخلهِ قطعةُ قماشٍ كبيرَة كانَ قد لفَّ فيها البُندقية.

– انظر؛ إنها بُندقيةٌ جميلَة وجديدةٌ، صدقْني لم يُطلقْ منها طلقةٌ واحدةٌ.

ثُم أخذَ يمدحُ البندقيةَ، ويطلبُ السماحَ من صاحبِه على ثَمنهَا الباهظ.

– صدقْني لَم يمضِ على سرقتِها مِن مخازِن الإنجليزِ سِوى أسبوعٍ واحدٍ، وإن الرجلَ الإنجليزِيَّ هو الذي يطلبُ هذا الثمنَ الباهظَ، ولا شيءَ يدخلُ جيبي.

تناوَلَ أبو محمود بندقيتَهُ وخرَجَ. في الليلةِ ذاتِها؛ كانَ برفقةِ بعضِ رجالِ القريَةِ ممن استَطاعوا تَدبرَ أمرهم، وَحصلوا على سلاحٍ بطريقةٍ أو بأُخرى، قاموا بتَحصينِ دفاعات القريَةِ، خاصةً بَعد أَن سَمعوا أَخبارَ سُقوطِ بعضِ القُرى المجاورَةِ لهم، وتهجيرِ أَهلِها، توقعُوا الهجومَ في أَي لحظةٍ، وبالفعلِ حدثَ ما كانوا يَتوَقعونَ.

هاجَمَت العصاباتُ الصهيونيةُ المدخلَ الشرقيَّ للقريةِ، وكانَ هو على رأسِ المُدافعين عنها، لساعاتٍ طويلةٍ لَم تستَطع تلكَ العصاباتُ التقدمَ في القريَةِ، انسحَبوا بعدَ أن تَكَبدوا أربَعة عشر قتيلًا، وعشرات الجرحى، قَدمت القريةُ سبعَة شُهداء والعديدَ من

الجَرحى، في الصباحِ الباكرِ؛ كانَ الرجالُ يُشيعونَ الشهداءَ، ومن ضمنِهم أبو محمود، حملَه الرجالُ عاليًا على الأَكتافِ، أَدخَلوه ساحةَ الدارِ؛ ليَتم إلقاء الدمعةِ الأخيرَة فوقَ نعشِهِ، والوداع الأخير.

تقَدمَت أُم محمود مَع أطفالِها الأربَعة، قَبَّلَت جبينَه الطاهرَ دونَ أن تذرفَ دمعةً واحدةً، حمله الرجالُ وشيعوهُ إلى مثواهُ الأخير، بعدَ شهرٍ من الهجومِ الأولِ عاوَدَت العصاباتُ الصهيونيةُ هجومَها العنيفَ الذي استَمر أيامًا عديدَةً، نفدَت ذَخيرَةُ الرجالِ، وسَقطَ معظمُهم شُهداء، سَقطت القريةُ، ثُم تهجرَ أهلُها، سقطت فلَسطين كلها في أيدي عصاباتِ الغُرَباء، لكن قبرَ أبي محمود ظَلَّ شاهدًا على الجريمةِ، وما زالَ يُزينُ ذاكرَةَ المكانِ، تحتَ شجرةِ الكينيا الواقعَةِ على التلةِ المُقابلَةِ للقريةِ.

بعدَ أشهرٍ طويلةٍ؛ فوجِئَت عائلةُ أبي محمود برجلٍ كبيرٍ في السن علَى أطرافِ المخيمِ يسألُ عن محمود؛ ابنِ الشهيد، دخلَ خيمتَهم، ثُم أخرجَ بندقيةً سوداء من قطعةِ قماشٍ، وسَلمَها لمحمود:

– هذِه بندقيةُ والدِك – رحِمَه اللهُ – ، أوصاني أَن أعطيها لكَ بعدَ شهادتِه، وها أَنا أُؤدي الأَمانةَ.

قالَ الرجلُ، ثُم غابَ عن الأَنظارِ دونَ أن يعرفَ أَحدٌ كيفَ دخلَ المخيمَ وكيفَ غادرَ.

ليلَةُ القَبضِ على سَعيد عطَا الله

وَجَّهَ لهُ صفعةً اهتَزت لها أركانُ المكانِ، رَكلَهُ بقدمِهِ ركلةً أَطاحَت به أرضًا، قبلَ أَن يَتأَلمَ أو يصرخَ سكبَ عليهِ وعاءَ ماء مُثلج، تجمدَ في مكانِه، حاولَ أن يتحركَ يمينًا أو يسارًا، لكن قيودَه المُحكَمةَ في الكرسي المقلوب على الأرضِ حالَت دونَ إبداء أَي حركةٍ، رفعَه مرةً أُخرى عن الأرضِ، ووجهَ لهُ صفعةً أُخرى، تنَصَّلَ من جسدِه، فلَم يعُد يشعرُ به من شِدةِ الركلاتِ والصفعاتِ، رفعَ العصْبةَ عن عينيهِ، لَم يَستطع فتحَها من شدةِ ضوءِ المصباح الكَهربائِي الذي كانَ مُعلقًا في السقفِ، لَم يُميز المَكانَ جيدًا، أَهي غرفةُ مكتبٍ أَم قبو، حجرةٌ في مكانٍ ما في هذَا العالَم، أَحسَن الجلادُ صناعتَها لتُناسبَ إثارَةَ الرعبِ والموتِ في قلوبِ الضحايا، كُل ما شاهَدَهُ هو غرفةٌ مظلمةٌ، مصباحٌ شديدُ الضوءِ والحرارَة في سقفِ الحجرةِ المُنخفض، طاولةٌ خشبيةٌ خلفَها كُرسي، وظلٌّ وحشٍ كَأنه إنسانٌ، يوجهُ لهُ الصفعاتِ واللكماتِ، يطلبُ منه أَن يعترفَ بأسماءِ شُركائِه في المُؤامرَة القَذِرَةِ، يصرخُ الرجلُ، ويُقسمُ أنه بريءٌ.

استنفدَ كُلَّ أساليب التحقيقِ التي تعَلمَها في أثناء دورةِ الضُّباطِ

الأَخيرَةِ، لَم يبقَ أمامَه سوى التعذيبِ، لَم يخرجْ من تحتِ يدهِ شخصٌ لَم يعترف حتى الآن، حتى ذَلك الضرير الذي تَم اعتقالُه بالخَطأ نتيجةَ تشابهِ أسماء؛ اعترفَ أنهُ هو الذي كانَ يكتبُ الشعاراتِ ضِد رئيسِ الجمهوريةِ على جدرانِ المدرسَةِ، سُحقًا لهذا الرجلِ! لا يريدُ أَن يعترفَ، وجهُه أتعبَ كفَّ ذلكَ الظلِّ الشبيهِ بالبشرِ، لماذا لا يعترفُ ويُوفرُ على نفسِهِ وعلى ذلكَ الظل كُل هذَا العناء؟! يمكنُ أَن يقبلَ منهُ أي عذرٍ إلا أَنهُ بريءٌ، لا أَحدَ عندهُ يخرجُ بريئًا إلا الميت الذي يرحلُ في حادثِ قضاءٍ وقدَر، أو يُسَجل أَنهُ منتحرٌ، أو في ظروفٍ غامضةٍ.

وحده سَعيد عطا الله لَم يكُن يصدقُ ما يحدثُ له، توقعَ أن يواجِهَ كلَّ مصائبِ الدنيا في هذه الحياةِ، إلا أَن يكونَ في هذا المكانِ، وبأي تهمةٍ؟! تهمةٌ لا يُصدقُها مَن هو في مقامِهِ، قادَهُ حظُّهُ العاثرُ إلى أَن يكونَ في المكان والزمانِ غير المُناسِبَين ذَلكَ اليوم، لَعنَ قَدَميه اللتين قادتاه ليمرَّ في ذلك الشارعِ، في تلكَ الساعةِ من ساعاتِ الليلِ المتأخرةِ.

كانَ هناكَ مُظاهرةٌ صاخبةٌ للإسلامِيينَ تُطالبُ باستقالَةِ الرئيسِ، ثُم بدَأت الاشتباكاتُ بينَ المُتظاهرين وقواتِ مكافحةِ الشغَبِ، اعتُقِلَ عديدٌ من المُتظاهرين وغير المُتظاهِرين ممن وُجِدوا في المكانِ لِأَي سببٍ كانَ غير التظَاهرِ والسيَاسَةِ، كانَ هو أبعدَ الناسِ عن السياسَةِ، ذنبُه الوحيدُ أنهُ ملتحٍ، ويرتَدي جبةً طويلةً سَوداء تُشبهُ جبةَ أَئمةِ المُساجِدِ.

– أَنتَ أَيها الصعلوك؛ تريدُ إسقاطَ الرئيسِ وقَلبَ نظامِ الحكمِ؟

وصَفعَهُ صفعةً أطاحَت به والكرسي أرضًا من جديدٍ.

– أَنا بريءٌ يا سَيدي، لا علاَقَة لي بالمُظاهراتِ والسيَاسَةِ على الإطلاقِ.

– اخرَسْ أيها الصعْلُوك، نَحنُ نعرفُ عنكَ كل شيءٍ، جمَعنَا كُل المعلوماتِ التي تُؤكدُ انتماءَكَ لتنظيمٍ إسلامي متطرفٍ، يعملُ على قلبِ نظامِ الحكمِ.

– أنا؟!

– نعم أَنتَ، اعترِفْ، لأي تنظيمٍ إسلامِي تَنتمي، إخواني أم تَحريري أَم تكفيري؟ ومَن الجهةُ الخارجيةُ التي تُمولُ نشاطاتِهم الإرهَابيةَ؟

أنكرَ الرجلُ التهمَ الموجهةَ إليهِ، وأقسَم أنهُ لا علاقَةَ لهُ بالإسلامِ أَو المُسلِمين، لكنهُ ظلّ الرجل الذي يشبهُ البشرَ، لا أَحدَ يَمُر من تحت يَدَيهِ دونَ أن يعترفَ، قالَ في نفسِه:

– هذا الرجلُ يكذبُ، لا بُد أن يكونَ وراءَهُ منظمةٌ إرهابيةٌ كبيرةٌ، ووراءَه سرٌّ كبيرٌ يجبُ أن يبوحَ بهِ راضيًا أَم مُكرهًا، ثُم هو نطقَ بالدليلِ، ها هو يُنكرُ صلَتَه بالإسلامِ والمسلمين؛ لأنهُ يُخفي ما هو أعظم، بقيَ أَن يقولَ أنهُ مِن رُوادِ الحانَاتِ كَي يُخففَ عن نفسِهِ، لكن هذِه الألاعيبَ لَن تمُر على ضابطٍ مُتمرسٍ مِثلي، يجبُ أن يعترفَ

يعني يجبُ أن يعترفَ.

بَعد أسبوعٍ من اعتقالِه؛ لَم يعترف سعيد عطا الله أَبَدًا، لقَد أفسَد متعةَ ذلكَ الظل الذي يُشبهُ البشرَ، ولَم يقُل شيئًا، اقتَلعوا أَظافرَهُ، لم يقل شيئًا، صَعقوه بالكهرباء، لم يقُل شيئًا، أَحرَقوا جسدَهُ بالنارِ دونَ جدوى، غضبَ الظلُّ الذي يُشبهُ البشرَ، زادَ من التعذيبِ، بقيَ سعيد صامتًا هذِه المرةَ إلى الأَبد.

وُجِدَ سعيد عطا الله في إحدى المُستَشفياتِ الحُكوميةِ مَيتًا في ظروفٍ غامضةٍ، وآثارُ تَعذيبٍ بادِيَةٌ عَلى جَسَدِهِ، تعرفَت عائلتُهُ إليهِ بعدَ أن أَبلغَت السلطاتِ عن اختفائِهِ قبلَ أسبوعٍ، أقيمَ للأَب سعيد عطا الله قُداسٌ مهيبٌ، وتم تَشييعُه من كنيسةِ القِديسِ بطرس إلى مثواهُ الأَخير.

اللقاء الأوَّل والأخير

إذن انتَهى التشييعُ، وانفضَّ الجميعُ منَ المقبرة، جلسَ أبو نضال وزوجتُه أم نضال وحيدين أمامَ مُصابِهما، كانَ وقعُ الفاجعةِ شديدًا على قلبَيهِما، تعَبُ عشرين عامًا من السهرِ والحُمى، والشوقِ والحِرمانِ، والآمالِ والأَحلامِ والأُمنياتِ؛ تُبددُهُ رصاصَةٌ قاتلةٌ، قَطفَت فلذةَ كبدِهما، تمارسُ أُم نضال حزنَها بصمتٍ، تصرخُ بصمتٍ، تبكي بصمتٍ دونَ أَن يرى دموعَها أَحدٌ، وحده أبو نِضال فضحتهُ دموعُه هذه المرةَ وهي تنسابُ من أَعلى خديهِ لتُبللَ ترابَ القبرِ، مسَح دمعَه، أمسَك بكَف زوجتِه، قبَّلَها، فشعرَت بحرارَةِ الدموعِ، وقفَا أَمامَ شاهدِ القبرِ، رفَعا كفيهِما إلى السماءِ، ثُم قرَآ الفاتحةَ على روحِهِ قبلَ أَن يعودَا أدراجَهما إلى البيتِ.

كانَت الفاجعةُ أَشَد وقعًا على قلبِ أمِّ نضال، فهي التي كبَّرَت وسهرت وتعبَت وعلَّمَت، في ظل الغيابِ القسري لزوجِها، كانَ هو صَبرها وعَوَضها عن الحرمانِ والألمِ الذي عاشَتهُ منذُ لحظاتِ فرحتها الأولى، كان يكبرُ ويتفتحُ أَمامَها كَأنهُ وردةٌ جوريَّةٌ، تعيشُ معه في لحظاتِ تفتحه لحظةً لحظةً، أنجبتهُ في لَحظاتٍ مسروقةٍ من

حزنٍ ظللَ غيمتَها مُبكرًا، جلَست في غرفةِ العَزاءِ دونَ أن تشعرَ بما حولَها مِن مُعزياتٍ جِئنَ لُمواساتِها.

وضَعت حياتَها فوقَ صفحاتِ ذاكرتِها، بدأت تستعيدُ تفاصيلَ الذاكرةِ المجبولةِ بالأملِ والأُمنياتِ؛ يومَ أَن بدَأ ربيعُ الثامنة عشرة من عمرِها ينضجُ فوقَ أغصانِ الأُنوثةِ، تستَذكرُ ذلكَ المساءَ عندما حضرَ (حسَن قاسم) مع والدِه لخطبتِها، وضعَ الحاجُّ أبو حسن فنجانَ القهوةِ على الطاولةِ كما جَرَت العادةُ، رفضَ تناولَ القهوةِ إلا إذا أُجيبَ طلبُهُ.

– نريدُ طلبَ يدِ ابنتِكم (كرامة) لابننا حسن يا أَبا محمد.

– مِثلك لا يُرَدُّ يا أبا حَسَن.

أَجابَ والدُ العروسِ، تَمت الموافَقةُ، وشربَ الجميعُ قهوةَ الفرحةِ، لكن الفرحةَ الكبرى من نصيبِ العروسين، اللذين لم تتسع الدنيا بأسرِها لفرحتِهما، أخيرًا سوفَ تصبحُ كرامة عروسًا، وتملأَ البيتَ بالفرحةِ والأطفالِ، بعدَ أسابيع كانت (كرامة) في بيت زوجِها، تُبللُ سماءُ الفرحةِ أرضَ حسن بالمطرِ، فقد أصبحَ أسعدَ شابٍّ بالمُخيم، كانَ يُحب (كرامة) ويعشقُها، منذ أَن تفتحت أرادَ أن يقطفَها بسرعَةٍ كي لا يسبقَهُ أحدٌ إليها، وتحققَ لهُ ما أرادَ.

سبحت أُم نضال في ذاكرتِها، تارةً تذرفُ دمعةً عند كل مفترق حزنٍ، وتارةً ترسمُ بسمة على شفتيها حين تتوقفُ أَمامَ ومضةِ فرحٍ،

في الغرفةِ المجاورةِ مجلسُ عزاءِ الرجال، يجلسُ أبو نضال في زاويةِ المكانِ، يُشعلُ أحزانهُ مع سيجارةٍ، ينفثُها، ذكرياتُ دمعٍ ودمٍ تُخضبُ وجنتيه، عادَ بها إلى الوراء؛ لَم يبقَ على عرسِه سوى أسبوعٍ عندمَا اجتمَعَ مع رفاقِه في أحدِ الأبنيةِ المهجورةِ:

– موعدُ التنفيذِ قد حانَ أيهَا الرجالُ، كل شيءٍ جاهزٌ، الليلةَ تمامَ العاشرةِ والنصفِ سَتمر الدوريةُ قربَ الحرشِ، سنقومُ بمهاجمتها بالقنابلِ والنيران، أخونا (حسن) سيكونُ بانتِظارنا بسيارتهِ ليُعيدنا إلى المخيمِ بعد الانسحابِ.

وافقَ الجميعُ على الخطةِ التي طرَحها أحدُ المقاومين، ذهبَ (حسن) لتجهيزِ سيارتِه، لينتظرَهم في النقطةِ المتفَق عليها، نجَحَت العمليةُ، وكذَلك نجحَ حسن بالانسحابِ مع رفاقِهِ المُقاومين بسلامٍ.

في الأسبوعِ التالي موعدُ العرسِ، اجتمعَت كرامةُ وحسَن في عُشِّ الزوجِيةِ، مضَت الأيامُ، عاشَا خلالَها أسعدَ أيامِ حياتِهما، في الشهرِ الثالثِ للزواجِ؛ شعرَت كرامةُ بدوارٍ في رأسِها، كانَت تتَقيأُ بين الحينِ والآخر، زغردَت الحاجةُ أم الحسن، وأقبلَت نساءُ الجيران يهنئن أم الحسن؛ فَكرامة ستصبحُ أمًّا، وكذلك حسن سيصبحُ أبًا.

عَمت الفرحَةُ في منزلِ العروسَين وعائلَتيهما، إلا أن الفرحَة المَسروقَةَ من أنيابِ اللصوصِ لَم تكتمل، بعدَ ستة أشهرٍ من الزواجِ؛ اعتَقَلت خفافيشُ الظلامِ (حسنًا)، وذَهبت به بعيدًا لِغياهِب

المجهولِ، بينَما الفرحةُ في أَحشاءِ كرامةَ تنمو وتكبرُ، وبعد ثلاثَة أشهرٍ من التحقيقِ نُقِلَ حسن إلى السجنِ، وعندما علمَ رفاقُه في الأسرِ قصتَه؛ أصبحوا ينادونه (بالعريسِ الجديد)، بدلًا من الأسيرِ الجديدِ، بعدَ أشهرٍ؛ جاءَت (كرامة) لزيارَتِه، لكنها لَم تكُن وحدَها، وضَعت فرحتها الأولى أمامهُ خلفَ شبكِ الزيارَةِ:

– هذَا ابنُنَا يا حَسن.

تَحركَت في دَاخلِهِ مشاعرُ لَم يعهدْها من قبل، ذرفَ دمعَتين وبسمةً.

– مباركٌ علينا يا أُمَّ نضال.

– نعمَ الاسمُ يا أبا نضال.

ثُم دعَت له بالإفراجِ العاجلِ، وأَن يتربى الصغيرُ في ظِل والدِه. انتهَت الزيارةُ الأُولى، تلَتها زياراتٌ أُخرى، طلبَ منها أَن تُحضِرَ نضالًا معها كل زيارةٍ، وأن تشتري من كل قطعةٍ تُحضِرُها لنضال زوجَين؛ واحدةً لنضال، والأُخرى لهُ، استغربَت طلبَهُ، ملابس طفلٍ! ما حاجتُهُ لِملابسِ طفلٍ رضيعٍ؟! لكنهَا وافقَتهُ ولَم تَعترِض.

ذاتَ مساءٍ؛ سَأَلَه أحدُ زملائِه الأسرى عن سببِ إدخالِ ملابسِ نضال الصغيرِ لَديهِ، كانَت الإجابَةُ محزنةً ومؤلمةً:

– ببساطةٍ؛ أريدُ أَن أعيشَ مع ابني، وأَرى كيفَ يكبرُ، أريدُ أَن أُواكبَ تَفتحَهُ لحظةً بلَحظةٍ.

هزَّ زميلُه الأسيرُ رأسَه بالموافقةِ والإعجابِ. خصصَ أبو نضال حقيبَةً خاصةً لملابسِ نضال، وكذلك خصصَ ألبومَ صورٍ خاصًّا لصورِ نضال فقط، فقد اشترَط على أُم نضال أَن تقومَ بتصويرِه كلَّ شهرٍ مرةً، وإحضار الصورِ له عند الزيارَة، هكَذا سيَعيشُ مع نضال، وسيعيشُ نضال في داخلِه على مدارِ لحظاتِ الأسرِ والحرمانِ.

بعدَ أشهرٍ من الجلساتِ الصُّوريةِ والمُداولاتِ؛ أصدرَت محكمةُ العَدو حكمًا جائرًا بحَق أبي نضال، وتم الحكمُ عليه بالسجنِ الفعلي لعشرين عامًا، صبرَ أبو نضال واحتَسَبَ، كانَ يُشفقُ في داخلِه على زوجتِه التي تتحملُ كُل أعباءِ تربيةِ نضال، إضافةً إلى البُعد والحرمان الذي تُقاسيهِ نتيجةَ غيابِه، عرضَ عليها أَن يُحررَها منهُ، لتبحثَ عن حياةٍ أُخرى، رفَضَت بشدةٍ وقالَت:

- لا أَعرفُ لي حياةً أُخرى غير التي معك.

كبرَ نِضال، وكبرَت معهُ الأحلامُ والأُمنياتُ، كان يحضرُ مع والدتِه كُل زيارةٍ، يدخلُ عندَ والدِه في الدقائقِ العشرة الأخيرةِ من وقتِ الزيارةِ، كانَ أبو نضال يُجلسُه في حِجرِه، يُداعبُهُ مرةً، ويُقَبلُه مراتٍ عديدةً، يخرجُ من جيبِه بعضَ حباتِ الشوكولاتة، ويُقدمُها رشوةً لصغيرِه نضال ليُوافقَ على الدخولِ وراء الشبكِ في الزيارةِ القادمةِ، أحيانًا تنجحُ الخطةُ، وأحيانًا أُخرى تفشلُ، حسبَ مزاجِ نضال الصغير.

مضَت الأيامُ سريعةً، كبرَ نضال، وأصبحت حقائبُ أبي نضال لا تتسعُ لَملابِس نضال، لكنه يُصر كُل زيارةٍ أَن يُحضِروا ملابسَ جديدةً لنضال؛ لأنه لا يُصدقُ أَنه يكبرُ إِلا من خلالِ ملابسِهِ، إن أحضروا إليه ملابسَ أكبرَ حجمًا من سابقاتِها يقتنع بأَن الصغيرَ يكبرُ.

بعد سنواتٍ؛ أصبحَ نضال في الصف الأولِ الابتدائِي، بَدأَ يسأَلُ، ويُكثرُ من طرحِ الأسئلةِ عَلى حيرةِ والدتِه:

– أمي؛ لماذا أَبي في السجنِ؟ لماذا لا يَعودُ معنا إلى البَيتِ عندَما نزورُه؟ ومَن هؤلاء الذينَ يَحتجزونَه؟ مَن؟ ولماذا؟ مَن؟ ولماذا؟

كانَت أُم نضال تُجيبُه دائمًا:

– عندَما تكبرُ وتُصبحُ رجلًا سوفَ تعلَمُ.

نضالُ يكبرُ ويكبرُ، وتَزدادُ أسئلتهُ وتكبرُ، ويزدادُ قلقُ أُم نضال ويَكبرُ أيضًا.

قالَ لِوالدِه في الزيارةِ الأخيرَةِ:

– عندَما أكبرُ سوفَ أَشتري بندقيةً، سأُحررُكَ من هؤلاء، وسَتعودُ معنا إلى البيتِ.

انفرَجَت أساريرُ أبي نضال، فرحَ لفصاحةِ ولدِهِ وذكائِه، كانَ يجيبُ:

– لا داعي لشِراءِ البَنادقِ، في الزيارَةِ القادمَةِ سوفَ أعودُ معكم إلى البيتِ.

وهكذَا في كل زيارةٍ يسمعُ نضال مِن والدِه الوعودَ والأَماني، يَعودُ أبو نضال إلى زنزانته، يضعُ نضالًا فوقَ سريره، ثُم يخرجُ الصورَ القديمةَ ليتفحصَها، ثم يقارنُ الصورَ الجديدَة بالقديمة، يتأملُ ملامحَ نضال؛ صورَه وهو رضيعٌ، صورَه وهو في عمر ستة أشهرٍ، صوره وهو في عمر عامين، وهكذا..

مضَت السنواتُ تجُر وراءَها أحلامَه وآلامَه وأَحزانَه، والزائرُ الثقيلُ الأبيضُ يكبرُ ويتمددُ على امتدادِ تضاريسِ الرأسِ من الجسدِ، كبرَ نضال، وبلغَ الحلمَ عندما استنشقَ أولَ وجبةِ غازٍ مسيلٍ للدموع هذا اليومَ في مدرستِه، شعرَ بنشوةِ الانتصارِ والرجولةِ وهو يقذفُ الحجارةَ باتجاهِ جيشِ المُحتلين.

– هؤلاء يَحتجزونَ أَبي، ويَجبُ أَن يَدفعوا الثمنَ.

يتقدمُ باتجاههِم، يقذفُ الحجرَ تلوَ الحجرِ، يحاولُ مديرُ المدرسَةِ ثنيَهُ عن هذا خوفًا عليهِ دونَ جدوى، وصَلت أَخبارُهُ إلى آذانِ والدتِه من مُعلماتِ المدرسةِ، ومن جاراتِها القَلِقاتِ عليها، يُقبلُ رأسَها ويَديها ويُطمئِنها، يُبَددُ قلقَها، وسُرعان ما يكونُ على رَأسِ أولِ تظاهرةٍ تنطلقُ من المدرسَةِ، كانَ يشعرُ أنهُ اكتشفَ نفسَه، رجولَته اكتمَلَت عندما اكتشفَ جغرافيا الحجرِ وقنابِل (المولوتوف)، ويَود لو يستطيعُ أن يُقدمَ أَكثرَ وأَكثَر.

تصلُ أخبارُه إلى السجنِ، يسيطرُ الخوفُ والقلقُ على قلبِ الأُبوةِ

الأَسيرَةِ، يحاولُ استمالَتَهُ باللينِ والحنانِ، ويطلبُ منهُ أن يَهتمَّ بنفسِه ووالدتِهِ في الوقتِ الراهِنِ، وعدَهُ أن يُرسلَه إلى الخارج للتعليمِ في أي جامعةٍ يَختارُها، طلبَ منهُ فقط أَن يحصلَ على مجموعٍ ممتاز في الثانَويةِ العَامةِ، وعدَ والدَهُ خيرًا، لكن قَلبَه وعقلَه كانا في مكانٍ آخَر.

يُدركُ أبو نِضال حساسيةَ السن التي يمر بها صغيرُه الذِي شارفَ على أبوابِ الثامنة عشرة، لكنهُ يُسلمُ أَمرَهُ إلى الله.

لَم يكتَفِ نضال بالحجرِ والمولوتوف، إنهُ يبحثُ عَن أشياء أُخرى، يُريدُ أَن يُكملَ المسيرةَ التي ابتدَأها والدُه، فهو ابنُ أبيهِ وابنُ أُمهِ، ولا يَرى طموحَه إلا في السلاحِ، لكن المُحتلين وصلوا إليهِ قبلَ أن يصلَ هوَ إلى مرادِه.

تصلُ الأخبارُ إلى سمعِ أبي نِضال؛ اشتباكاتٌ ومُواجهاتٌ تدورُ في المخيمِ، جيشُ المُحتلين يَقتحمُ المُخَيمَ، ويعتقلُ عددًا كبيرًا مِن الشُّبان، بَدأ المُذيعُ يذكرُ أسماءَ المُعتقلين، تمنى لو انطوَت الأيامُ وجاءَ يومُ الخميسِ، سيُمضي أسبوعًا كاملًا في قلقٍ وخوفٍ حتى الزيارةِ، لكن الزمَن بتَوقيتِ مقابرِ السجونِ يمضي رغمَ أنفِه.

حضرَت أُم نضال لزيارَته، بدَا القلقُ والتعبُ على وجهها الصبوح، أخبرَت زوجَها بِتفاصيلِ ما جَرى بعد الاشتباكاتِ؛ تَم فرضُ حظرِ التجولِ في المُخيمِ، لَم تمضِ ساعةٌ على دخولِ نضال البيت تسللًا عَن أسطحِ المنَازلِ حتى كانَ الجنودُ يُحاصرونَ البيتَ ويقتحمونَه:

– اصطحبوا معهم نضالًا ورَحلوا، قيل لنا إنهُ في أَحدِ مَراكز التحقيقِ.

زَادَت زِيارةُ أُم نضال من منسوبِ القلقِ والحيرَةِ في صدرِهِ، أَخذَ يدعو اللهَ أَن تكونَ العواقبُ سليمةً، أمضَى كل هذِه السنواتِ على أَملِ اللقاء بفلذةِ كبدِه، لَم يبقَ لهُ إلا القليل ليَجتمعَ شملُ العائلَةِ، ثلاثُ سنواتٍ لا شيءَ مُقارَنةً مع ما مضَى، أخبرَ أَحدُ الأسرى الجدد أبا نضال أَنه التقى بنضال في إحدى زنازين التحقيقِ، وأنهُ قريبًا سوف يُنقَلُ إلى (المعبار)، تمهيدًا لترحيلِهِ إلى أَحد السجونِ بانتظارِ المُحاكمةِ، لا شعوريًّا بدَأَ أبو نضال يتخيلُ مشهدَ اللقاءِ.

– ماذا لو حضرَ إلى سجنِه؟ لكن حكمَهُ خفيفٌ، لن يَتجاوزَ السنَتين، ولمَ لا؟ فهذا زميلُه حضرَ إلى هنا على الرغمِ من بساطةِ التهَمِ المنسوبَةِ إليه، ماذَا سَأفعلُ عندما أراهُ أمامي؟

حاولَ أَن يتَخيلَ المشهدَ، لكنهُ عجزَ عن ذَلكَ، فالمَشهدُ أكبرُ من التخيلِ والخيالِ، بل الحَقيقةُ والواقِعُ أَمَر وأقسَى من كُل التصوراتِ والتخَيلاتِ، تزوجَ أبو نضال، حملَت زوجتُه، اعتُقِلَ أبو نضال، أنجبَت زوجتُه، كبرَ نضال، صارَ شابًّا، صارَ مُناضلًا، اعتُقِلَ نضال، صارَ أسيرًا، وها هو الأبُ والابنُ يَجتمعان، يجمعُهُما القيدُ والجدارُ والعتمةُ، فقطَ في فلَسطين يَلتقي الآباءُ بالأبناءِ في السجونِ، فقَط في فلسطين يكبرُ الأَطفالُ في السجونِ، فقَط في فلَسطين يُولَد الأطفالُ

في السجونِ، فقط في فلسطين يَلتقي الأَحبابُ إما في السجنِ، أو في القبرِ، أو تحتَ ظلالِ الحزنِ والمَأساةِ.

بعدَ أيامٍ؛ حدثَ ما توقعَهُ أبو نضال، لَم يخرُج ذلك اليوم إلى ساحةِ النزهَة (الفورة)، طلبَ ضابطُ القسمِ من ممثلِ الأَسرى الحضورَ إلى بابِ القسمِ؛ لاستقبالِ السجينِ الجديدِ، دخلَ الشاب إلى الساحةِ الرئيسَةِ للسجن، سَألهُ ممثلُ الأَسرَى عن اسمِه:

- نضال حسَن قاسم.

أَجابَ الشاب، فتَسمر كلُّ مَن كانَ في ساحةِ النزهةِ (الفورة)؛ لِأنهم عرفُوهُ، وعرفوا ابنَ مَن يكونُ.

- أنتَ ابنُ أبي نضال إِذن، أَنتَ تُشبهُ أباكَ كثيرًا.

قالَ ممثلُ الأسرى، ثُم طلبَ من أَحدِ الأسرَى أن يُخبرَ أبا نضال، وطلبَ ممثلُ الأسرى من أَحد السجَّانين أَن يفتَحَ بابَ غرفَة (7) لإخراجِ أبي نضال إلى الفورة، استَجابَ السجانُ لطلبِه.

أرادَ أبو نضال أَن يفعلَ أشياء كثيرةً قبلَ خروجِه، أرادَ أن يُمشطَ شعرَه، أن يُبَدلَ ملابسَه، أَن يرتدي حذاءَهُ الرياضيَّ، لكنهُ خرجَ دونَ أن يفعلَ شيئًا، خرجَ كما هو على طبيعَتِه، بعد لحظاتٍ كانَ في الساحةِ الرئيسَة (الفورة)، كانَ هناك شابٌّ يتمشى مع زُملائِه الأَسرى ذهابًا وإيابًا، تسَمرَ أبو نضال في مكانِهِ وهو ينظرُ إليهِ، كذَلكَ فعلَ نضال الذي وقفَ مكانَهُ ينظرُ إلى والِدِه ويبتسمُ، ثم ينظرُ إلى وجوهِ زملائِهِ

الأَسرى كأنهُ يسأَلُهم ما الذي يَتعينُ عليهِ أن يفعلَه، حتى سمعَ أحدَ الأسرى يقُولُ:

- قَبِّلْ يَدَ أبيكَ يا ولَد!

فما كانَ منه إلا أَن استَحَثَّ خطاهُ، أسرَعَ قليلًا، وكذَلكَ أبو نضال، وما إن اقتربَ حتى ركعَ نضال تحتَ أَقدَامِ والدِهِ لتَقبيلِها، فما كانَ من أبي نضال إلا أَن جلسَ على الأرضِ، واحتَضن رأسَ طفلِهِ الشابِّ، وأخذَ يُقَبِّلهُ ويلثمه، ويشتمُّ رائحةَ الطفولةِ فيه، بكَى أبو نضال وانتَحبَ.

شاهدَ الأَسرى جميعًا دموعَهُ، وسمعوا نحيبَه، فبَكى كُل مَن كانَ في ساحةِ النزهةِ (الفورة)، بعدَ أن انقضَت حرارةُ اللقاءِ، وجَفت دموعُ الأشواقِ؛ احتَضنَ أبو نضال طفلَه الشاب تحتَ ذراعِهِ، ثُم راحَ يتمشى برفقتِه ذهابًا وإيابًا في الساحَةِ، حتى انتهى وَقتُ (الفورة)، وطُلبَ من الجميعِ العودةُ إلى زَنازينِهم.

كانَت المرة الأُولى لهُ منذُ سَبعَة عشرَ عامًا التي عَرفَ فيها معنى أَن يكونَ أبًا، أصبَح يُمارسُ أبوتَهُ على أرضِ الواقعِ، بعدَ أن كانَ يُمارسُها نظريًّا، أجلسَ طفلَه الشاب إلى جانبِهِ، وأخذَ يطعمُه بيدِه، يُمسدُ شعرَه تارةً، ويُقبلُهُ تارةً أُخرى، نضال الذي لَم يعتَد هذه المعاملَةَ الطفوليةَ كانَ يشعرُ بالخجلِ أحيانًا، خاصةً أمام رفاقِهِ الأسرى؛ لأَنهُ يَعُد نفسَه رجلًا وليسَ طفلًا، لكنهُ في النهايةِ تركَ

العنانَ لوالدِه ليُمارسَ أُبوتَهُ كما يشاءُ، طلبَ منهُ أن ينامَ في حضنِه في الليلةِ الأولى من لقائِهما، خجلَ نضال كَثيرًا؛ لأنهُ ليسَ طفلًا، لكنه وافقَ أن ينامَ بالقربِ من سريرِهِ.

أخرَجُ أبو نضال ألبومات الصورِ القديمة، ثُم أخذَ يعرضُها عليهِ صورةً صورةً:

– هذِهِ لكَ وأنتَ ابنُ ستة أَشهرٍ.. هذهِ لكَ وأنتَ ابنُ عامٍ..

حتى عرضَ عليه أكثَرَ من خَمسمائة صورة، كلما شَاهدَ نضال صورةً من صورِ الطفولَةِ كانَ يبتَسمُ ويندهشُ، كيفَ استطاعَ والدُه الاحتفاظَ بهذه الصورِ دونَ كللٍ أو مللٍ.

– ليسَ هذا كُل شيءٍ..

قالَ أبو نِضَال، ثُم سحبَ إحدى الحقائبِ الكبيرةِ من تحت السريرِ، فتحَها، ثُم راحَ يُخرجُ منها ملابسَ الطفولةِ، ويعرضُها على نضال:

– انظر.. هذا لباسُكَ الداخليُّ وأَنتَ ابنُ ستة أشهرٍ.. وهذَا وأنتَ ابنُ سنةٍ.. وهذَا وأنتَ في السنةِ الثانيةِ من عمرِك.. وهذَا.. وهذَا..

دُهِشَ نضال من حنانِ والدِهِ وعظمتِه.

– لو كُنتُ أعلمُ أَن الأُبوةَ جميلةٌ هكذا لدخلتُ السجنَ منذُ زمنٍ.

قالَ نضال، ثُم أخذَ يُقَبِّلُ رأسَ والدِهِ ويَدَيهِ، كانَت الأيامُ تمضي بسرعةٍ في توقيتِ أبي نضال، خاصَةً بعدَ اعتقالِ وحيدِهِ الصغير، ليكونَ رفيقَه في الأسرِ، ثم إصدَار مَحكَمَة الاحتِلالِ حُكمًا في حَقِّهِ

بالسجنِ لمدةِ عامين، هذَا يعني أَنه سيُفرَجُ عنهُ قبلَ والدِهِ، الذي تبقَّى من مدةِ حكمِه ثلاث سنواتٍ.

انقضَت السنتان من عُمرِ نضال داخلَ السجنِ، على الرغمِ من قسوةِ الأسرِ والبُعدِ والحرمان، وعلى الرغم من أَنهُ لا شيءَ جميل في السجنِ؛ إلا أَن تلك السنتين كانَتا أجملَ سَنتَين في عمرِ أبي نضال، قضَاها مع فلذَةِ كبدِهِ، عرفَ خلالَها معنى أَن يكونَ أَبًا، ويُمارسَ هذِه الأُبوةَ على أرضِ الواقِعِ، عرفَ معنَى أن يَظَل ساهِرًا كُل ليلَةٍ يرقبُ نضالًا وهو ينامُ، يُغَطيهِ إن انحَسَرَ عنهُ الغطاءُ، يَغلي لهُ المريميةَ والأعشابَ إِن شعرَ بالزكام، سيَعودُ وحيدًا من جَديدٍ، سيعودُ لأُبوتِهِ الأولى، الممارسَة النظريَّة لهَذِهِ الكَلمةِ التي لَم يَشعرْ بقيمتِها ومعناها إلا بَعدَ اعتقالِ ولدِهِ، لكن ما يُعزيهِ أنه سوفَ يَتنسمُ عبيرَ الحريةِ بعدَ عامٍ، وسيجتمعان في ظِل الحُريةِ وأُم نضَال.

صباحَ يومِ الإفراجِ؛ اصطَف الجميعُ بشكلٍ دائِريٍّ في ساحةِ السجنِ (الفورة)؛ لوداعِ نضال، بدَأ نضال يَمُر على جموعِ الأسرى المُصطَفينَ لوداعِه، يُصافحُهم ويَحضنهم بحرارةٍ بالغَةٍ، ثم جاءَت اللحظةُ الأصعبُ من الوداع بعدَ أن انتهى من وداعِ الجميعِ، اقتربَ منهُ والدُه، احتضَن رأسَهُ تحتَ ذرَاعِهِ، رافقَهُ حتى البابِ الرئيس للقسمِ، خرجَ معهُ خلفَ الشبكِ، بابٌ واحدٌ يفصلُه عَن لحظةِ الفراقِ ولحظةِ الحريةِ في آنٍ واحدٍ، نظرَ نضال إلى والدِه، وفي لمحِ

البصرِ اختطَفَ يدَ والدِهِ وراحَ يُقبلُها، ثم تعَانقَ الاثنانِ عناقًا طويلًا، تخللَهُ كثيرٌ من الدموعِ والنحيبِ، وكما كانت لحظةُ اللقاءِ محزنةً كانَت لحظةُ الفراقِ أقسى وأكثرَ حُزنًا، بكَى كُل من كانَ في الساحةِ، دخلَ السجانُ ساحةَ (الفورةِ)، وضعَ يدهُ على كتفِ نضال، ثُم على كتفِ والدِهِ:

– حانَ وقتُ الرحيلِ يا شَباب، السيارةُ في انتظارِكَ يا نضال.

أمسَكَهُ مِن ذراعِهِ، ثم خرَجَ بهِ من القسمِ، وأغلقَ البابَ، عادَ أبو نضال إلى غرفتِهِ والدموعُ تشعلُ حزنَ عَينيهِ، صافحهُ رفاقُه في الغرفةِ، وراحوا يُصبرونهُ بالفرجِ القريبِ، والحريةِ الموعودةِ في ظِل الوطنِ والأَحبابِ.

احتفَى المخيمُ عن بكرةِ أبيهِ بفرحةِ الإفراجِ عن نضال، هرعَت المُهَنئات إلى بَيتِ أُمِّ نضال؛ ليُشاركنَها فرحتَها، كانَت زغاريدُهن تعانقُ المساءَ، لكن أُم نضال تَشكو نقصَانَ فرحتِها، التي لن تكتملَ إلا بالإفرَاجِ عن الغائبِ الذي أَمضى حتى الآن تسعة عشر عامًا بعيدًا عن لياليها المُقمرة.

تُقبلُ الجارةُ أم العبد نضالًا، أما الجارةُ أم عصام فتَحثُّ أمَّ نضال على البحثِ له عن عروسٍ، تُؤيدُها أُم فواز، التي ترَى أَن زواجَهُ سوفَ يُكبلُه، ويَنشغلُ بالزوجةِ والأَولادِ، وبالتالي لَن يعودَ إلى السجنِ، استحسَنت أُم نضال الفكرةَ، لكن عقلَ نضال في مكانٍ

آخَر، كانَ ينتظرُ أَن يَنفَضَّ عنهُ الجمعُ؛ كَي يؤدي مهمةً ينبغي أن يكون نفذَها قبلَ سنَتين، وما إن خفَّت الأرجلُ عن بيتِه بعد شهرٍ واحدٍ؛ حتى وصلَ بيتَ أبي عبد الله التاجِر.

– هل لديكَ ما طَلَبتُه منكَ قبلَ سَنتين؟

– بكُل تأكيدٍ.

أجابَهُ الرجلُ.

– إذَن أريدُها بعد عِشاء هذا اليومِ، سَأكون قد أحضرتُ لك ثمنَها أَيضًا.

بعدَ ساعتين؛ كان نضالُ عند صديقيهِ ثائر وجهاد، عرضَ عليهِما الفكرةَ، فوافَقاهُ، في الموعدِ المحددِ كانَ عند التاجِرِ، حصلَ على مُرادِه، دفعَ الثمنَ، وغادَرَ، كانَ صَديقاهُ في الجبلِ المقابلِ للمخيمِ فِي انتِظارِهِ، أخرجَ البنادِقَ من حقيبةِ الظهرِ الكبيرةِ، ثم بدأَ بالتدريبِ عَليها.

تخترقُ أصواتُ طلقاتِ النارِ ليلَ المخيمِ الهادِئَ، وتَصِلُ إلى آذانِ الساكِنِين في جوفِ الليلِ، فَيَظُنونَ أَنها مُجَرَدُ ألعابٍ نارِيةٍ، يعود إلى البيتِ في ساعَةٍ متأخرةٍ، يثير حفيظةَ والدَتِه التي لم تهَنأ بَعْدُ برُؤيتِه، تُذَكره بموعدِ الإفراجِ عن والدِه الذي سيكونُ بعد أشهُرٍ، تَعرِضُ عليهِ الزوَاجَ والبحثَ له عن عروسٍ، يجيبها:

– ليس الآن.

تُؤَجلُ الأمرَ حتى يُفرَج عن أَبي نضال، تَرنو بأفكارِها إلى البَعيد،

تتَمنى أن يجمعَ اللهُ ثلاثتَهم تحتَ سقفٍ واحدٍ، تُطلِعُ نضالًا عَلى هذهِ الأمانِي، يُطَمئنُها ويشاركُها إياهَا، تَنتهي عملياتُ التدريبِ، يَخرجُ مع رفاقِه إلى الشارعِ الالتِفافِي حيثُ الهَدَف المُرَادُ مُهاجَمتُه، دوريةٌ تمُرُّ في المكانِ كلَّ يومٍ في مثلِ هذهِ الساعةِ، قامُوا بمهاجَمتِها وإمطارِها بوابلٍ من النيرانِ، سقطَ أفرادُها بين قتيلٍ وجريحٍ، خُطةُ الانسحابِ تَقضي أن يتفرَّقَ ثلاثتُهم في النقطةِ (ب)، نقطَةٌ رسَموهَا، واتفقوا عليها بينَهم، ثم يجتَمعون في النقطةِ (ج)، في أحدِ النوادي الرياضيَّةِ، وصلَ نضال وجهاد النقطةَ (ج)، لكنَّ ثائرًا لَم يصِلْ، اصطدمَ ثائِر بدوريةٍ أُخرى كانَت تُمَشطُ المنطَقةَ، اشتبكَ معها حتى سَقَط جَريحًا، ذكرَت إذاعَةُ العدوِّ أنّ جَيشَ العدُو اعتقَلَ أحد المهاجِمِينَ للدوريةِ العسكريةِ، منذُ تلكَ الليلةِ لم يعُد نضال إلى البيتِ، أصبحَ نضال مُطارَدًا، وَكذلكَ صديقُه جهاد.

بقيَ شهرٌ واحدٌ للإفراجِ عن أبي نضال، الذي وصلَتْهُ أنباءُ اقتحاماتِ جيشِ المُحتَلين لمنزلِهِ، والبَحث عن وحيدِه نِضال، تشتدُّ المداهماتُ الليليةُ للمخيمِ بحثًا عن نِضال ورفيقِه، دون جَدوى، يُهَددونَ والدتَه بأنهُم سوفَ يعيدونَه لها جثةً هامدةً إن لَم يُسَلِّم نفسَه، حذرُوها من محاولةِ التسترِ عليه أو مساعدَتِه، كانَت تقولُ لَهم:

– لَن تُمسكوا بهِ هذه المَرة، لن تكونَ مِهنَتي زيارَة السجونِ، تارةً زَوجي وأُخرى ولَدي، لن تَعثروا عليهِ هذهِ المرة لتَعتقلوه.

بعد شَهْرٍ؛ كانَت الفرحةُ المنقوصةُ المشحونةُ بالقلقِ والتوترِ تعمُّ المخيمَ من جديدٍ، أُفرجَ عن أبي نضال، وَعمَّت الأفراحُ المخيمَ بأسرِهِ، والمدينةَ وضواحِيها.

سِيرةُ أبي نضال الثورِيَّةُ سَبَقتهُ، حتى أصبحَ رمزًا من رموزِ الحركةِ الثوريةِ في المدينةِ والمخيمِ والمنطقةِ كُلِّها، لم يبقَ رجلٌ في المخيمِ أو المدينةِ إلا زارَ أبا نضال مُهنِّئًا بعودتِه الميمونَةِ، كذلكَ لَمْ يَسْلَم بيتُ أبي نضال من الزياراتِ الثقيلةِ غير المرغوبِ فيها من قِبَل جيشِ المحتلين، يَقلبونَ البيتَ رأسًا على عقبٍ، يُهَددونَ الرجُلَ وزوجتَه من مَغبَّةِ مُساعدةِ نضال والتستر عليه.

حتى اللحظةِ لم يستطِعْ نضال التسلُّلَ إلى المنزلِ لعناقِ والدِه وتهنئتِهِ بالإفراجِ، بانتظارِ أَن تَخفَّ المراقبةُ لمنزلِهِ، كُلَّما هَمَّ بذَلكَ وجدَ المنطقَةَ بأَسرِها محاصَرةً بالجنودِ، فيَعود أَدرَاجَهُ إلى مخبَئِه، حاولَ مراتٍ عديدَةً، لكن كُل محاوَلاتِهِ باءَت بالفَشلِ، فقرَّرَ الانتظارَ حتى يخرُجَ والدُهُ إلى المدينةِ، لكن زبانيةَ المُحتَلين كانُوا أَسرَعَ منهُ.

في تلكَ الليلةِ الباردَةِ المُظلمَةِ؛ حاصَرَت دورياتُ المُحتَلين منزلًا قديمًا في أَطرافِ المدينَةِ، طلَبُوا من قاطِني المنزِل الخُروجَ إلى الشارِع، لَمْ يُجبْ أَحدٌ، أمسَكَ ضابطُ الوحدةِ الخاصةِ بمُكَبرِ الصوتِ:

– نضال؛ اخرُجْ من المنزلِ، نحنُ نعلمُ أنك في الداخِلِ.

جاءَهُم الردُّ سريعًا، إذ بَـدأَت جهنمُ تنطلقُ مِن شبابِيكِ

المنزلِ نحوَ خَفافيش الظَّلام، بدَأت قذائِف العَدُو تأكلُ الجدرانَ العاريَةَ للمنزلِ، تَحولَ المكانُ إلى ساحةِ حربٍ، استَمر الاشتباكُ حتى ساعاتِ الفَجرِ الأُولَى، نفَدَ رصاصُ نِضال، فتَقَدمَت جرافَةٌ عَسكريةٌ، وهدَمت ما تَبَقى من المنزلِ فوقَ رؤوسِ المُتَحَصنينَ فيهِ، سَكتَ الرصاصُ، وسادَ المكان هدوءٌ قاتلٌ.

في ساعاتِ الصبَاحِ الباكرِ؛ تَم استِخراجُ جُثتَين من تحتِ الركامِ، وُضِعَتا أَمامَ المنزلِ المُدمَّر، ثُم تمت تَغطيتُهما بِقطعَةِ قماشٍ سَودَاء، بَعد لحظاتٍ؛ حضرَ ضابطُ المنطقةِ من غرفةِ العَملياتِ، أَزالَ الأَغطية، وتأكدَ أَن الشَّهيدَين هُما نِضال وجِهاد، والتَقَطَ لهما صُورَتين، ثُم غادرَ برفقَةِ قَتلاهُ وجَرحاهُ.

وصلَ نبَأُ استِشهادِ نِضال وجِهاد إلى المُخَيم، خرَجَت الجماهيرُ عن بكرةِ أبيهَا نحوَ منزليهما، سَقَطت أُم نضال مَغشيًّا عليهَا، ذرفَ أَبو نضال الدموعَ، تمنى لو أنهُ لَم يخرُج من السجنِ، وبقيَ مع وَلدِهِ وملابسِهِ وصُورِهِ هناكَ، حيثُ التقاهُ للمَرةِ الأُولى والأَخيرَةِ.

أوقفَ أبو نِضال شَريطَ ذِكرياتِهِ في مجلسِ العَزاءِ عندَما أَشعَلَ لفافةً أُخرى، وأَخذَ يحرقُ أَنفاسَهُ بِها.

بَعد شهرين؛ شَعَرَت (كرامة) بِدَورانٍ في الرأسِ، وغثيانٍ، ورغبةٍ دائِمةٍ في التقَيؤِ، لقد شَعَرت بهذِه الحالِ مَرةً واحدةً من قَبل، وكانَت حينَما تَشَكَّلَ نضال الأَولُ في أَحشائِها.

الفِلَسطِيني الأَخير

جلسَ مُتَسمِّرًا أَمامَ شاشَةِ عَجزِه وحيرتِه، لا يُصدقُ إِنْ كانَ ما يَحدثُ أَمامَه الآنَ حُلمًا أَم حقيقَةً، تَمَنَّى لَو أنهُ كانَ أَحدَ قوافلِ الفَراشَات التي صَعدت إِلى السمَاءِ، كانَ ذَلكَ سيُوفرُ عليهِ رؤيَةَ هذا المَشهدِ المُحزِنِ والمُثيرِ للغَضبِ، كانَت بوصَلةُ غضبه تشيرُ دومًا إلى جهةٍ معروفةٍ مُحَددةٍ لا لبَسَ فيها، ولا يَختلفُ عليها اثنان، أَما الآن؛ فالغَضبُ يَحتلهُ ويسكنُه وينثرُهُ في كُل اتجاهٍ، لا يَستثني منه أَحدًا، حتى زوجته أُم محمد، التي أصابَها شيءٌ من شظايا غَضبِهِ، عندمَا تَدَخلَت في محاولةٍ فاشِلةٍ منها لتهدِئَةِ ثورَتِه، صرخَ في وجهِها:

- لا أريدُ أَن أَرى أَحدًا الساعةَ يا أُم مُحمد.

غادَرت غُرفةَ الجلوسِ بصَمتٍ، بينما جلسَ هو يُتابعُ حفلَ التوقيعِ المزعومِ، ينظرُ يمينَه إِلى صورةٍ مُعلقةٍ على الجدارِ، ثُم يعودُ وينظرُ إِلى شاشَةِ التلفازِ، يُتابعُ كُلَّ حركةٍ تجري، وكل كلمَةٍ تُقالُ فوقَ منصةِ الاحتفالِ، يَنظرُ إِلى وجوهٍ كانَ في الأَمسِ القريبِ يعرفُها وتعرفُه، يألَفُها وتألفُهُ، أصبَحت أَشَد غربة وأَشَد بُعدًا عَن قلبِه وروحه، كَأنها لَم تمُر في أَروقَةِ حياتِهِ، خاصةً بَعد أن استَبدَلَت

البدلات الأنيقة وربطات العنق الفاخرة اللامعة بالملابس المرقطة، وغَادرَت تُرابَ الخَنادقِ المَجبولَ بالعرقِ والدماءِ، ونفضَت غُبارَ معَارِكِها عن أَحذيَتِها العَسكَريةِ، التي كانَت تعشقُ رائِحَةَ الدخانِ والبارودِ، يَبدو أَنَّ هؤلاء استَعذَبوا نُزولَ أَفخَم الفنادِق وأَشهَرَها عالميًّا، وأثقلَت النجومُ الكثيرَةُ كواهلَهُم.

أَمواجٌ من العواصفِ والأفكارِ الغَاضبَةِ تَثورُ داخلَ كيانِ أبي مُحمد، الذي ما انفَكَّ ينظرُ مرةً أُخرى إلى الصورةِ المُعلقَةِ على الجدارِ، ثُم يستأنِفُ ثورَته، بَدأَ بممارسَة سياسَةِ التفكيرِ بصوتٍ مرتفعٍ هذهِ المَرة:

– ليسَ من أَجلِ هَذا بَذلنا الدماءَ! ليسَ هذا ما نتطلعُ إليه! لَم يَرحَلْ مُحمد وصَحبُه من أجلِ ثمنٍ كهذَا يا هؤلاء!

كانَ صوتُ أبي محمد يَعلو شيئًا فشيئًا، حتى وصلَ إِلَى أَسماعِ أُمِّ مُحَمد مرةً أُخرَى، فقررت أَن تكسرَ حاجزَ غضبِ زوجِها هَذِهِ المرةَ.

دخَلَت غرفةَ الجلوسِ، وفي يدِها كَأسُ ليمونٍ، وضَعتهُ بينَ يديهِ، واحتَضنت كَفيهِ براحَتيها كلتيهما:

– لا تفعلْ بنفسِكَ هذا يا أبا مُحمد! الغضبُ يؤثرُ في صحتكَ.. اهدَأْ وتَوكلْ على الله، ولا يكونُ إلا ما أَرادَ اللهُ.

– ليتَني متُّ قبلَ هذا يا أُم مُحمد.. ولَم أرَ دمَ محمدٍ يَذهبُ هدرًا!

– لن يَذهبَ هدرًا يا أبا محمد.. ولن يستَطيعَ أَحدٌ مهما كانَ، ومهما علا شَأنُهُ أَن يبيعَ دمَ مُحمد، ومَن ذَهبَ في دربِ مُحمد.

– إنهم يفعلون هذا الآنَ يا أُم مُحمد! إنهم يبِيعونَ الآنَ، انظُري إلى التلفازِ! انظُري.

وأشارَ بسَبابَتِه إلى شاشَةِ التلِفازِ. نهَض أبو محمد، وضَع كأسَ الليمونِ على الطاولةِ، وغادرَ غرفَةَ الجلوسِ في الطريقِ إلى خارجِ المنزلِ، سألتهُ عن وجهَتِهِ، لَكنهُ لم يُجِب، ولم تسمع سوى طرقةِ البابِ بعدَ أَن خرجَ.

قادتهُ خُطاهُ إلى غيرِ هُدى، فَكرَ أَن يَستَصرِخَ الناسَ، ويُحرِّضَهم على ما يَجري الآنَ، ويَدعوهم إلى رفضِ ما وصَلنا إليهِ، لكنهُ لَم يفعلْ، لَم يكُن بالناسِ حاجةٌ إلى مَن يُحرِّضُهم أو يدعوهُم للرفْضِ.

في أثناء ذلِكَ كانَت أقدامُهُ تَطوي الطُّرقاتِ، وتَختصرُ المسافَات، فجأةً، ودون قصدٍ؛ وجدَ نفسَهُ في مقبرةِ الشهداءِ، جلسَ ملاصقًا لِرأسِ شاهِد قبرِ مُحمد، قرأَ لهُ الفاتحةَ، أخيرًا وجدَ الطمَأنينة، هنا في هذا المكانِ بالذاتِ، بَدأ يستعيدُ هدوءَهُ ونفسَهُ، ويسترجعُ الماضي، كأَن محمدًا ارتقى شهيدًا في هذِه اللحظةِ، وليسَ قبلَ سَنواتٍ.

عَلى غيرِ عادتِهِ يومَها؛ ارتَدى محمدٌ أَجملَ ما عندَهُ من ثيابٍ، سروالًا، وقميصًا ناصعَ البياض، عريسٌ يَستعدُّ لحفلةِ الزفافِ، خرجَ من البيتِ، وقفَ على رأسِ الشارعِ، نظَرَ مرةً أُخْرى إلى البيتِ، كانَت والدتُه لا تزالُ على البابِ، ابتسَمَ لها، ولوَّحَ بكفهِ، ثُم غادرَ إلى المَدرسَةِ.

كانَ يومًا استِثنائِيًّا، يَسودُهُ الأبيضُ والأحمرُ، شعرَت أُمُّ مُحَمد

بثقلٍ يجثمُ فوقَ صَدرِها، شيءٌ مَا يخنقُهَا، كانَ محمدٌ يشعرُ بنَشاطٍ مُميزٍ وحَيويةٍ بالغَةٍ، بَدَأت شمسُ الصَّباحِ تُداعِبُ أَطرافَ أَشجارِ السَّروِ والكينيا المُحيطَةِ بالمَدرَسَةِ، كُل شَيءٍ يدُبُّ بالحَياةِ، في الساحَةِ الرئيسَةِ مُدرِّسُ التربيةِ الرِّياضِيَّةِ يَلعبُ كُرةَ القَدمِ مع طُلابِه، في المَبنى المُجاورِ طُلابُ المرحلَةِ الابتِدائيةِ يُكَررُونَ الدرسَ خلفَ مُدَرِّسَةِ اللغَةِ العَربيةِ، بصَوتٍ يكادُ يَصلُ إلى الشارعِ العَام.

مضَى اليومُ سَلِسًا وسِريعًا، بعد انتهاءِ الحِصةِ الخامسةِ والأَخيرَة؛ أَعلَن جرسُ المدرَسةِ انتهاءَ الدَّوامِ الرَّسمِيّ، فاضَت الشوارعُ بجُموعِ التلامِيذِ الذينَ بَدَأوا بمُغادرَةِ المَدرَسةِ، في هذه اللحظةِ؛ كانَت دورياتُ المُحتَلينَ تقتَحمُ المكانَ، أوقفَوا عددًا من كِبارِ السنِّ كانُوا في الشارعِ ذاتِه، طلَبوا منهُم مسحَ الشِّعاراتِ التي تُغَطي الجدرانَ، وإزالةَ الأَعْلامِ الفِلسطينيةِ عن أَعمِدةِ الكَهرباء، تَحولَت الشَّوارعُ خلالَ لَحظاتٍ إلى ساحةِ حَربٍ، تصَدى تلامِيذُ المدرسَةِ لهُم بالحِجارَةِ، وبِسواعِدِهم الفتيةِ السَّمرَاء الناعِمَة، أَمطرَهُم المُحتَلّونَ بالرصَاصِ والغازِ المُسيلِ للدموعِ، كانَ الملاكُ الأبيَضُ على رَأسِ المُظاهرَةِ، يُميزهُ بياضُه عَن بقيةِ التلامِيذِ، يَتَنقلُ يمينًا ويسارًا، يُطاردُ هذِه الدوريَّةَ، يقذفُ أُولئِكَ الجنودَ بِحجارَتِه الغاضِبةِ.

قررَ أَحدُ الجنودِ أَن هذِه الطفولَةَ تُسببُ خطرًا عليهِ وعلَى دولتِه، صوَّبَ بُندقِيَّتَه بإِحكَامٍ، وأَطلقَ النارَ علَى القلبِ مباشَرةً، سَقطَ

مُحمد، تحولَ الأبيَضُ إلى الأَحمَر، حُمِلَ مُحمد على الأكتافِ، وقَد أصبَحَ عريسًا رغمًا عنهُ، ودونَ أَن يُسمحَ لهُ بتجاوزِ ربيعِه السابع عشر.

تتدافعُ الذكرياتُ والصوَرُ المُتناقِضَةُ في مُخيلةِ أبي محمد في هَذِه اللحظةِ.. صورةُ طفلِه الصغير الغارِقِ بدمهِ، يُحمَل عاليًا فوقَ أَعناقِ الرجالِ.. صورةُ المُصافحة التي جرَت قبلَ قليلٍ بعدَ توقيعِ الاتفاقِ، الزعيمُ يبسطُ يدَهُ.. يُصافحُ القاتلَ.. ويضَعُ يَدَه في يدِ العَدوِّ.

وقبلَ أن يهمَّ أَبُو محمدٍ بمغادرَةِ المقبرةِ؛ أزالَ بعضَ الحشائشِ الصفرَاء عن جانبِ القبورِ، ثُم رتبَ أكوامَ حجارةٍ يجلسُ عليها زُوارُ القبورِ، أَخذَ يُراقبُ سربًا من النملِ كان يستَعِد للشتَاءِ القَادمِ، كانَ السربُ يسيرُ بانتظامٍ وترتيبٍ ككتيبَةٍ عَسكريةٍ، يَحملُ فوقَ ظهرِهِ حباتِ القمحِ، يدخلُ بيتَهُ، يُخزنُ حبةَ القمحِ، ثم يخرجُ لإِحضارِ أُخرى.

سُرَّ أَبو محمد بهذَا المنظرِ، وانفرَجَت أساريرُه بعضَ الشيءِ، ارتَسمت ابتسامَةٌ خفِيةٌ فوقَ شَفتيهِ، لاحظَ أن هُناك نملةً صغيرةً بينَ السربِ الكبيرِ أَثقَلَت كاهلَها حبةُ القمحِ، كانت تسيرُ خطوةً، ثُم تُسقِطُ حبةَ القمحِ أرضًا، لكنهَا تستعيدها مرةً أُخرى، ثم تُسقطُها وتستعيدها، وهكَذَا دونَ أَن تستَسلمَ، واصلَت محاولاتِها دونَ يأسٍ، حتى قامَت أخيرًا بإيصالِ حبةِ القمحِ إلى المكانِ المُعَد لها في مخزنِ شِتاءِ المَملكةِ.

لاحظَ أبو محمد أَن هُناكَ تغييرًا طرَأَ على سلوكِ هذِه النملَةِ بعدَ أن استَطاعت أَن تُؤدي المهمةَ على أَكمَل وجهٍ، حيثُ زادَت سرعتُها، وأَخذَت تُسابقُ صاحباتِها في السربِ كأَنها تُعَبرُ عن فرحتِها بِنجاحِ مهَمتها.

غادرَ أبو محمد المكانَ، بينما كانَ صَوتُ أجهزةِ التلفاز التي تنقلُ الحدثَ يَنبعثُ من المنازلِ المجاورةِ، ويصلُ إلى مسامعهِ.

صوتُ مذياعٍ قريبٍ يُزاحمُ أَجهزةَ التلفاز:

– الساعَةُ الآنَ تمام الرابعة، الثالث عشر من أيلول، نشرَة الأَخبار، اتفاقٌ تاريخيٌّ بينَ الفلسطينيين والإِسـ...

وهُنا؛ يَذهبُ أبو محمد بذهنِه بعيدًا إِلى مكانٍ آخَر، صوتُ التصفيقِ المُنبعثِ من التلفازِ والمذياعِ لا يصلُ إلى مسامِعهِ، يهمسُ في نفسِه:

– والله لو لَم يبقَ على وجهِ الأرضِ إلا أَنا.. لَن أُصافحَ هَؤلاء أبدًا.. ولَن أَضعَ يدي في أيديهم.. لو.. لم.. يبقَ.. إلا.. أنا!

ثُم يَمضي نحو الشارعِ الرئيسِ عائِدًا إِلى منزلِه.

بَعدَ سنواتٍ طوالٍ؛ رحلَ الرئيسُ ورحلَ معهُ الاتفاقُ.

العُمرُ الجَديد

بَكَت وبَلَّلَت ترابَ قبرِهِ بالدموعِ، منذُ ثلاثَةِ أيامٍ وهي علَى هذِهِ الحالِ؛ تحضرُ في الصباحِ الباكرِ.. تجلسُ عندَ شاهد رأسِه.. تُمَسدُ الترابَ بيَديها.. تزيلُ الحصى والحِجارَةَ الكبيرَةَ.. تزرعُ الوردَ الجوريَّ حولَ قبرِه.. تزرعُ شَجرَةَ سروٍ عندَ شاهدِ القَدمَين، ثُم تزرعُ نخلةً على يمينِه، وأُخرى على يسارِهِ، ثُم ترويها بالماءِ والدموعِ.

مضَت الأيامُ الثلاثُ الأُوَلُ، ها هو أُسبوعٌ يمرُّ علَى رحيلِهِ، وهيَ كما هيَ، يَتحولُ حزنُها إلى عادةٍ يوميةٍ، حتى خشيَ أَهلُ الحَيِّ علَيها من الجنونِ حزنًا على وحيدِها، لم تُرزَق بغيرِه، كانَ كُل حياتِها في هذِهِ الدنيا بَعدَ رحيلِ زوجها، تعِبَت، وسهرَت، وعلّمت، وكبَّرَت طيلَةَ عِشرين عامًا، وها هو يضيعُ منها بلمحِ البصرِ، لم يَحتج الأَمرُ أكثرَ من أربع ثوانٍ ليَخطفَهُ القتلةُ مِن بين ذِراعَيها، تَمَنَّت لو كانَ حَظُّه كحَظِّ ابنِ عمهِ، ليتَهُ قضَى نصفَ عمرِهِ في السجنِ، ولَم يُغادر هذهِ الدنيا، على الأقل كانت سَتزورُه وتَراهُ!

قبلَ أسبوعٍ من رحيلِ خالد..

كانَ الليلُ قد جثَم فوقَ صدرِ المَدينةِ، طرقاتٌ وصُراخٌ ونباحٌ،

فتَحت أُمُّ أحمد بابَ منزلِها، سَألَها الضابطُ عَن أسماء أَولادِها، أخذَت تُعددُهم الواحدَ تلوَ الآخَر، بدءًا من الصغيرِ ثم الأَكبَر فالأَكبَر، حتى وصَلَت إلى اسمِ أَحمد، سَألها الضابطُ عنهُ.

- نائمٌ في غرفتِه.

اقتَحَموا عليهِ أَحلامَه، كانَ أَكبرَ أولادِها، وهو الذي يُديرُ متجرَ العائِلةِ في السوقِ بعدَ وفاةِ والِدهِ قبلَ عامَين، كانَ يشغلُ مكانَ والِده، يفتحُ المَتجرَ مِن الصباحِ حتى المساء، انتزعوهُ من حضنِها إلى الاعتقالِ، صرَخت، وحَزنَت، وبَكت حتى جفَّ الدمعُ في عينَيها.. طفلُها الكبيرُ في أيدِي الظلَمَةِ.. أَطفالُها الصغارُ بلا مُعيلٍ.. المتجرُ مُغلَقٌ منذُ اعتقالِه.

شَعرَت أَن مَصائِبَ الدنيا انهالَت فوقَ رأسِها، مُصيبَةُ اعتقالِ أَحمد كَبلَتْ يَدَيها، المتجرُ مصدرُ رزقِها وأَطفالِها، هي امرأَةٌ مُسِنةٌ، لا تستَطيعُ إدارَةَ متجرٍ أو دُكانٍ صغيرٍ، حتى وجدَت ضالَّتَها لدى سلفتها أمِّ خالد.

في المساءِ؛ كانَت تطرقُ بابَ شقيقِ زوجِها المرحوم، أو بالأَحرى؛ بابَ المرحومِ شقيقِ المرحومِ، استَقبَلتها سلفتُها بالترحابِ، طلَبَت منها أَن يقومَ خالد بإدارةِ متجرِ ابن عمهِ أحمد حتى يَأذَنَ اللهُ لهُ بالفرَجِ، وافقَت أُم خالِد، ولَم يُمانِع خالد، استَأذَنَت بالعودةِ إلى بيتها بعدَ أَن سَلمَتهُ مفاتيحَ المتجرِ، قبَّلَ يدَها ورَحلَتْ.

في اليومِ التالي؛ بَدأَ الصباحُ يَبثُّ أنفاسَهُ في أحياءِ المدينةِ، وبدأت خيوطُ الشمسِ تتكسرُ في أزقةِ وزواريبِ الأسواقِ التجاريةِ، خرَجَ خالد مِن منزلِهِ الكائِن في بابِ العامود، مارًّا بشوارعِ الواد، عرَّجَ إلى (كشك) الفلافلِ الواقعِ في رَأسِ الشارعِ، ألقَى تحيةَ الصباحِ علَى الحاجِّ (أبي محمود الهَدمة)، وطلبَ منهُ أَن يضَعَ لهُ عشرينَ قرصًا من الفلافلِ في كيسٍ صغيرٍ، واصَلَ سيرَه حتى مرَّ مِن أمام المنزلِ الذي استَولى عليهِ كبيرُ القتلَةِ قبلَ شَهرَين، والذي أصبَح فيما بَعد رئيسَ وزراءِ دولَتِهم، كانَ علمُ الدولةِ المزعومةِ يُغَطي الجدارَ بكاملِهِ، يَنسابُ من أَعلَى الجدارِ حتى أسفلِهِ، وصلَ دُكانَ الحلَويات الشهير، أَلقَى التحيةَ على (الحاج أبي صبيح)، وأتَم طريقَه حتى وصلَ سُوقَ القطانين، حيثُ متجَر عمِّه المرحوم، وابنِ عَمهِ المُعتَقَلِ.

فتَحَ التجَّارُ محالَهُم التجاريَّةَ، بدَأت الحرَكةُ تَسري في جسَدِ المكانِ، لا شيءَ غيرُ طبيعِي؛ الباعةُ المتجولُونَ يسوقونَ بِضَاعتَهم، بائِعُ القهوةِ يترنمُ بصوتِهِ وهو يُنادي لقَهوةِ الصباحِ على ألحانِ قرعِ الفَناجين.

بعد لحظاتٍ انقلَبَ المشهدُ، قُطعانُ المستوطنين القادمين مِن حائِط البراقِ يتجمهرون في السوقِ، بَدأوا باستِفزازِ أصحابِ السوقِ والتجارِ الأصلِيينَ وأصحابِ البلادِ الأصليين.

يقفُ خالد أَمامَ بابِ متجرِه، يرقبُ ما يَجري في المكانِ، لا يَستطيعُ أن يتركَ متجرَ عمهِ وحيدًا، لو كانَ المتجرُ ملكَه لاختلَفَ الأَمرُ، أَما

الآنَ فهو أَمانةٌ في عنقِهِ، تصَاعَدت حدةُ التوترِ بعدَ أَن قامَ قطعانُ اللصوصِ والإجرام بإطلاقِ هتافاتٍ ضِد العربِ، جرَت مُناوَشاتٌ بين الشبابِ العُزَّلِ الموجودين وبينَ أولئِكَ اللصوصِ، بينما خالد في المتجرِ؛ تسَللَ أَحدُهم بينَ الجُموعِ، وقذَفَ قنبلةً يدويةً نحوَ الأبرياءِ العُزَّلِ، تنفجرُ القنبلةُ داخلَ المتجرِ، يسقطُ خالد مضرجًا بدمائِهِ، يُسارعُ الشبانُ بنقلِه إلى المُستشفى، إلا أن شُرطَة الاحتلالِ تَحتجزُ سيارَةَ الإسعافِ لساعَتَين، يصلُ خالد إلى مُستشفى (هداسا عين كارم)، يُعلنُ الطبيبُ استِشهادَه فورًا، تصلُ الأَخبارُ إلى مسامعِ أُم خالد، تسقطُ مَغشيًّا عليها، وتَتمنى لَو أَن خالدًا اعتُقِلَ مع ابنِ عمهِ.

تصلُ الأخبارُ إلى مسامعِ أُم أَحمَد، تبكي وتفرَحُ في آنٍ واحدٍ، انفَجَرت القُنبلةُ في المكانِ الذي يجبُ أَن يكونَ فيه أحمد، لكن الذي سقَط هو خالِد، تبكي.. أَحمد لا زالَ في الاعتقالِ.. لا زالَ حيًّا.. تفرحُ.. وكانَتْ قد بَكَت قبل أُسبوعٍ علَى اعتقالِهِ.

غادَرَت أُم خالِد المقبرَةَ، بعد أَن قامَت بسقايةِ الورودِ والنخيل الذي زرَعتهُ فوقَ ترابِ شَهيدِها، ثم توَجهَت إلى منزلِ سلفتها أُم أَحمد؛ لتَهنئتها بسلَامةِ الإفراجِ عن أَحمد، الذي أُطلِقَ سراحُهُ قبلَ قليلٍ، بينَما كانَ اليمام يُحلقُ عاليًا في سَماءِ المَدينةِ مرَّت نسمةٌ مُنعشةٌ داعَبت وجهَها وأَطرافَ شالِها.

ومِن الحُبِّ ما يُودي بصَاحبِهِ
إلى مستشفى الأمراضِ العَقليَّة

بَدأت الصدمةُ تُسيطرُ على وجوهِ الحاضِرين، لا أَحدَ يُصدقُ ما يُشاهدُه الآن، الكُل في حَالةِ ذُهولٍ وحزنٍ، قبلَ قليلٍ؛ كانَت الفرحةُ تغمرُ وجوهَ أَهلِ الحارَةِ كلهم، كُل شيءٍ كانَ علَى ما يُرامُ، ما إِن غادَرَ الجيرانُ إلى منازلِهم حتى سَمعوا صُراخًا وعويلًا ينبعِثُ من منزل جارِهم (أبي جميل النحاس)، وحينَ هرعُوا إِلى مَصدرِ الصوتِ أَفزَعَهُم المنظرُ.

وصلت سيارةُ الإسعافِ إلى المَكانِ، بعد لحظاتٍ حضرَت في إثرِها عربةُ إطفاء الحَرائقِ، حاولَ رجالُ الإطفاءِ إنقاذَ حقائِب السفَرِ، خاصةً تلكَ الحقيبَةَ الصفراء التي أَشَارَت إليها الحَاجةُ أم جميل، لكن دون جَدوى، التَهمت النيرانُ كُل شيءٍ، ليسَ كلُّ النيرانِ يُمكنُ إطفاؤُها، هُناك نيران تَبقى مُشتعلةً إلى الأبَدِ بمُجردِ اندلاعِها، وهذا ما حدثَ بالضبطِ مع جَميل النَّحاس، الذي كانَ قبلَ قليلٍ أَسعَدَ خلقِ الله بعودتِه إلى الوطنِ.

تقَدمَ مُسعفان إليهِ، أَمسَكاهُ من ذراعَيهِ، استَجابَ لهما دونَ أن يُبدي أي مُقاومةٍ تُذكَر، الصمتُ والوجومُ يُخَيمان فَوقَ وجههِ، ظلَّت عَيناهُ ترقبان منظرَ الدخانِ المُتصاعدِ من حقائبِ السفرِ، بينما كانَ يصعدُ عربَةَ الإسعاف.

طلَبت والدَتُه أم جميل وعمتُه صبحية مُرافقَتَه إلى المَشفى، استَجابَ مديرُ الإسعافِ لطلبِها، وقفَ أبو جميل أَمام عتبةِ الدارِ لا يقوى على فعلِ شيءٍ، خَضَّبَت الدموعُ لحيتَهُ البيضاءَ، شعرَ بالعجزِ لأول مَرةٍ في حياتِه، ليتَه يستطيعُ أن يُقدمَ شيئًا لِولدِه الآنَ! لكن العقدَ السابعَ من عمرِه تركَ آثارَهُ في جَسدِهِ وعظمِهِ.

في المَشفى؛ أَخذَ الطبيبُ يُجري الفُحوصاتِ تلوَ الأُخرى (لجميل النحاس):

- كل شيءٍ تمامٌ، لا إصابات جَسدية، لا حروق، لا جروح، الضَّغطُ جيدٌ، النبضُ كذلكَ جَيدٌ.

سَألَه الطبيبُ إن كانَ يشعرُ بالأَلمِ، أو يَشتكي من شيءٍ، لكن لا جوَابَ، سَأل الطبيبُ مستوضحًا عَما جرى، وجهَ سؤالَهُ إلى الحاجةِ أُم جميل، وعَمتِه الحاجة صُبحية، التي كانت كالأُم الثانِيَة لهُ، خاصةً بعد أَن ترَملَت دونَ أن تُرزقَ بِأَطفالٍ، ورفضَت الزواجَ مرةً أُخرى، عادَت إلى منزلِ شقيقِها أبي جميل، وأخذَت ترعاهُ كأَنها أُمهُ وأكثر، صُبحية التي تجاوَزت العقدَ السادسَ من عمرِها؛ أَخَذَت تروي

للطبيبِ تفاصيلَ الواقعةِ، بينما الدموعُ تنسابُ من عَيني جميلٍ على خديهِ كأنها حباتُ لؤلؤ، وهو يعودُ إلى الماضي قبلَ أَن يُقررَ السفرَ.

لَم يكُن يتجاوز العشرينَ من عمرِهِ عندما التقَى (أمينة ياسين) علَى مقاعدِ الدراسةِ الجامعيةِ، شعرَ أن هُناكَ شيئًا اشتعلَ داخلهُ منذُ اللحظةِ الأولى التي وقعَ فيها نظرُهُ عليهَا، أسرَهُ جمالُها القَروي، وتَملَّكَتهُ بساطتُها وعفويتُها، كانَت سمرَتُها الفاتنةُ، وابتسامتُها الساحرةُ؛ تُثلجُ صدرَهُ كُلما رآها، أو سمعَها، أو حتى جَمعتهُما يومًا مُحاضرةٌ مُشتركةٌ.

كانَ النقاشُ حادًّا في موضوعِ الزواجِ المُبكرِ للقاصِراتِ، هي أدلَت بدلوِها في خضم ذَلكَ النقاشِ، وهو راحَ يُؤيدُها في آرائِها، ومِن هنا وُلِدَ حُبهُما، بعد أَن وجدا أَن بينَهما كثيرًا من الآراءِ والمواقف المُشتركة، أصبحَ حُبُّهما يكبرُ أَكثر فأكثَر، حتى أصبَحا حديثَ قسمِ علمِ الاجتِماعِ، أيقَنَ جميل أَنهُ لا يستَطيعُ العيشَ دونها، حينها قررَ أن يتقَدمَ لخطبتِها مِن عائِلتِها، بعدَ أيامٍ كان هُو ووالداه يطرقونَ بابَ العائلَةِ.

أَبدى بَعضُ أفراد العائلةِ تَحفظَهُم علَى هذا الارتباطِ، وذَلك لأسبابٍ أولهَا أَن أمينة وجميلًا لا زالا طالبَين، والثانيَةُ أَن الحالَ الماديةَ للعريسِ متواضعةٌ، فلا يملكُ إلا قوتَ يومِهِ، ومنزلَ العائلةِ الذي يَأويهِ ووالديهِ، في النهايةِ تَم الاتفاقُ على تأجيلِ عقدِ القرانِ إلى ما بعدَ التخرجِ، ويقتَصرُ الأمرُ على الخطبةِ والإشهارِ فقط، وذَلكَ

بعدَ وساطةِ الوُجهاء والكبارِ من كِلا القَريَتَين، إِضَافةً إلى تعهدِ جميل أَن يعملَ ليلَ نهار من أَجلِ إسعَاد أَمِينَة.

كانَ جَميل شابًّا ذَكيًّا مُتفوقًا في دِراسَتِه، فارِعَ الطولِ، قَوِيَّ البنيَةِ، بدَأَ التَّصَحرُ يَغزو مُقَدمةَ رأسِه، عند ارتِدائِه نَظارَة القراءَةِ يُخبرُه أصْدِقاؤُهُ عادةً أنهُ يُشبهُ الأَطباءَ، آخَرونَ قالُوا إنَّها تدُلُّ على العلمِ وسِعَةِ المَعرِفَةِ، كانَ رَدهُ الوَحِيد عَلى مُشاكَساتِهم هو ابتِسامَتهُ المَعْهُودَة التي ترفضُ مغادَرةَ شَفتَيهِ.

أصبَحَت الجامِعةُ عشًّا كبيرًا.. حديقةً واسِعةً.. سَماء رَحبةً تَحوِي عُصفورَين يُحلقانِ في فضَائِها، ويتَنَقلانِ في أَرجَائِها، لا يُفارقَان بَعضَهما بَعضًا لَحظةً واحِدَةً، لا يَشعُران بِمن حولَهُما، حتى اعتَقَدا أنهُما وَحدهُما في تلكَ الروَابِي الخَضرَاء.

مَرَّت الأَيامُ كالسَّهمِ، كومضَةِ بَرقٍ في شِتاءٍ عاصِفٍ، كُتِبَت فصولُ أَجْمَل أيامِ العُمرِ هُنا، حيثُ وُلِد حبُّهما وترعرَعَ، وصارَ يُحلِّقُ في شُرفاتِ أَحلامِهما وآمالِهما، انقَضَت أَجملُ أيامِ العُمرِ التي كُتِبَت فُصولُهَا هُنا، حيثُ وُلِد حُبُّهما وتَرعرَعَ، وصارَ يُحلقُ في شرفاتِ أَحلامِهما وآمالِهما، انتهَت أجملُ سنواتِ عمرهما الدرَاسِية، أخيرًا تخَرجا من الجامِعةِ، وهنا بدأَت الأَحلامُ والآمالُ تُصارعُ الواقعَ، وبدأ جميل بالبحثِ عن عملٍ، يقدمُ أوراقَهُ من مؤَسسةٍ إلى مؤسسةٍ، ومِن جهةٍ إلى أُخرى دونَ جَدوَى، أصبَحَ عُضوًا في جيشِ الخِريجين

العَاطِلين عن العَملِ، مضَى العامُ الأولُ ولَم يَتَغير الحالُ، تذَمرَت عائلةُ أمينة في العلَن والخَفاء، حتى فُوجِئَ بوالدِ أمينة ذاتَ صباحٍ يطرقُ بابَه:

– اسمعْ يا ولدِي؛ هذَا الحالُ لا يُرضي أَحدًا، لقَد اتفقنا أَن يكونَ عقدُ القرانِ والزواج بعد التخرجِ، وقَد مر عامٌ والحالُ كما هو، لَم تتقدمْ خطوةً واحدةً، لولا إعطائِي كلمةً للوجهاءِ والكبارِ لما صبرتُ كُل هذِه المدةِ، فإِنْ كُنتَ لا تستطيعُ الوفاءَ بالوعد؛ دعْ كلًّا مِنا يذهب إلى حالِهِ يا بُني.

– يا عَمي؛ أَنتَ ترى بنفسِك الأوضاعَ، أُقسمُ إنني أبذلُ كل جهدي في البحثِ عن عملٍ، لكنكَ ترى الأوضاعَ كيفَ تسيرُ، أرجُوكَ أريدُ فرصَةً، بعضَ الوقتِ لا أَكثر..

– إلى متى؟ هل تُصبحونَ في سِنِّ الخَمسين؟! وحتى نصبحَ سيرةً على كُل لسانٍ؟!

– أريدُ منكَ فرصةً لسنةٍ واحدةٍ أو سنتين؛ لأَنني قررتُ السفرَ إلى الخارجِ، سأوفرُ خلالَها مبلغًا لا بأسَ بهِ، ثم أعودُ ونتزوجُ.

في بدايةِ الأمرِ رفضَ طلَب جَميل؛ لكن بَعد تدخُّلِ الوُجَهاء مرةً أُخرى وافقَ الحاج (رضوان ياسين) على إعطائِه هذِهِ الفرصَة.

تجَاوزَ الحاج رضوان عقدَهُ السادسَ، ولَم يُرزَق سوى بأربَعة بناتٍ، أكبرُهن أمينَة، عنيدٌ بطَبعِهِ، لكنهُ كان يُقَدِّرُ الوجهاءَ ويجلُّهم؛

لذَلكَ لَم يكن يرفضُ لهم طلبًا، وقد رافقَت هذهِ القيمُ الحاجَّ رضوان منذُ الطفولةِ، وما زالَ متمسكًا بِها.

أجهشَت أمينة بالبُكاء، لا تُصدقُ ما سَمعت الآنَ:

– أَينَ وعودُكَ لي بأن لا يُفَرق بينَنا سوى الموت؟ أَفي هذَا الوقتِ يتركُ الحبيبُ حبيبَتَه؟

هَدَّأ جميل من روعِها، قالَ لها يومَها:

– أنا لَن أسافرَ إلا من أَجلكِ أَنت، ولم أُغادرك إلا لأَعودَ إليكِ، لكن إِن بقيتُ هنا فلَن يكون لنا أملٌ بالزواجِ أبدًا.

اقتَربَ منها، احتَضَنَها، قبَّلها من جبينِها، اطمَأنت بعضَ الشيءِ، ورضيَت بما فرَضَت عليها الحياةُ، بحثَت عن إجابةٍ لكثيرٍ من الأسئلةِ فلم تجد، لأنهُ في بلادِ عالَمنا الثالثِ لا جوابَ لِمثلِ هذِه الأسئِلةِ، "لا تُؤخَذ الدنيا غَلابا"، فلِماذا لا يَستطيعُ الإنسانُ أَن يحققَ أبسَط أحلامِهِ في بِلادِنا؟ وهل نختَلفُ عن بقيةِ شُعوبِ الكرةِ الأرضِيةِ لنكونَ في ذيلِ القافلَة الإنسَانيةِ؟ وهَل كُتِب علينا الشقاءُ والفقر والمرضُ دونَ غيرنا؟ وهل كُتِبَ علينا أَن يكونَ متوسطُ عمرِ الإنسانِ العرَبي زعيمٌ واحدٌ أو حتى أقل من ذَلك؟ لا جواب..

وصَلَ جميل النحاس أَخيرًا إِلى (دُبي)، أقامَ لَدى أَصدِقاء، قادَتهُ ظروفُه إلى ما وصَلَ إليهِ، في البدايَةِ عَملَ ليلَ نهار، لَم يَدَعْ مهنةً إلا زاوَلَهَا، كانَت صُورةُ أَمينَة دافِعًا ليُوَاصلَ الليلَ بالنَّهارِ لتَحقِيقِ

الهَدفِ الذي جاءَ مِن أَجْلِهِ.

ذاتَ يومٍ؛ فُتِحَ له بابُ السَّعدِ، وشُرِعَت أبوابُ السَّمَاءِ؛ في أَثناءِ عَمَلِهِ كنَادِلٍ في أَحدِ المَطاعمِ الكُبرى الراقيَةِ في المَدينَةِ التي لا تَنامُ؛ حَضرَ رجلٌ تبدو عليهِ آثارُ النّعمَةِ والتَّرفِ، جلسَ على الطاولَةِ رقَم (7)، قَدمَ لهُ جميل ما طلَبَ، تناولَ وجبَةَ الغداءِ، ثم شربَ قهوتَهُ، غادرَ الرجلُ بعدَ أَن سَدَّدَ الحسابَ ودفَعَ إكراميةً للنادِلِ، وهنا لاحظَ جميل أَنَّ الزّبونَ نسيَ حقيبةً صغيرةً تحتَ الطاولةِ، لَم تكُن مغلقَةً بالكاملِ، استطَاعَ جميل أَن يرى رزمَ النقودِ الكَثيرَة داخِلَها، لكنهُ حملَها، ولحِقَ بالرجلِ، وأدرَكهُ قبلَ أَن يَخرجَ من بابِ المطعمِ، أَعادَ له حقيبَتَهُ، فأُعجِبَ الرجلُ بأَمانَةِ جميل، وتبيَّن فيما بعد أنهُ رجلُ أَعمالٍ كبيرٌ، وهو صاحبُ أكبرِ شركةٍ أدويةٍ في الإمارَة، سُرعانَ ما وظفَ جميلًا في شركتِه، ليكونَ مديرَ مكتبِه، وأَحدَ مُستَشاريهِ الكبار، براتبٍ كبيرٍ لَم يَكُن يَحلمُ بِهِ، حيثُ استطاعَ خلالَ عامهِ الأولِ أَن يجمعَ ما يشتري بهِ نصفَ قريَتِه.

لَم يكُن جَميل ليَنسَى قمرَه الذي يَنتظِرُه هناكَ في الوطنِ، كانَ يكتبُ لها رِسالةً كُل أسبوعٍ، يُحدثُها بِتَفاصِيل حيَاتِه اليَومِيَّةِ، يُصَبِّرها:

- لَم يبقَ سوَى القَليل، وسوفَ أعودُ قريبًا.

كانَت تُجيبُه بكلمَتَين فقَط:

- أَنا في انتِظارِكَ.

مرَّ أسبوعٌ لَم يَصلهُ شيءٌ منها، شعرَ بشيءٍ يقفُ في حلقِهِ، يَأبى الخروجَ ويَأبى الدخولَ، توجهَ إلى حجرَةِ الهاتفِ الدوليةِ، جاءَهُ صوتُ والدتِهِ، فَعاجَلَها بسؤالِهِ الأولِ عن أحوالِ أَمينة، وأَخبرَها أنها لَم تكتُب لهُ منذُ أُسبوعٍ.

ارتَبَكت الحاجةُ أُم جَميل، لَكنها طَمأنتهُ أَن الأُمورَ على ما يُرامُ، وأَخبرتهُ بانشِغالِ أَمينة بعضَ الشيءِ نتيجةَ وعكةٍ صحيةٍ أَصابَت والِدَتَها، صَدَّق جميل ما قالت والدتهُ، لكِن كلامَها ونبرَةَ صوتِها زادتهُ قلقًا على قلقِهِ.

بعدَ أسبوعٍ واحدٍ؛ دخلَ جميل إِلى مكتبِ مُديرِهِ، وطلبَ إجازةَ شهرين للعَودةِ إلى الوطنِ للزواجِ، وإحضارِ زوجتِه فيما بعد، سُرَّ المُدير لهذَا الخبرِ، وسُرعان ما وافقَ على طلبِهِ، ومنحَهُ مُكافَأَةً ماليةً كبيرةً هديةَ زواجِهِ، شَكرَه جميل، وغادرَ لتجهيزِ نفسِه للسفرِ.

في اليومِ التالي؛ وصلَ جميل قريَتهُ بعدَ العشاء، انتَشرَ خبرُ عودتِه، بدأَ الجيرانُ والأصدقاءُ يَتَقاطرونَ إلى منزلِ أبي جميل النحاس؛ لتهنئَتِه بعودةِ جميل من السفر، والترحيبِ بالغائبِ العائِدِ، كانَ جميل ينظرُ يمينًا ويسارًا علهُ يرى طيفَها من إِحدى النوافذ، بحثَ بينَ الحضورِ فَلم يجد عمَّهُ الحاج رضوان، شعرَ أَن هناك خطبًا قد جرى، هناك شيءٌ يدورُ خلفَ ظهرِهِ، وهُناكَ مَن يُخفي عنه أَمرًا ما.

انتصَفَ ليلُ جميل النحاس، شَرعَت جموعُ المُهنئين بالعَودة إِلى

منازلِهم؛ حَتى يعطوا الضيفَ فرصةَ الاستراحة والانفراد بعائِلتِه، بقيَ بعضُ الجيران في المجلسِ، سُرعانَ ما غادرُوا هُم أَيضًا.

نظرَ جَميل إِلى عيونِ والدتِهِ، لَم تكُن على ما يُرامُ، استَدارَ بنظرِه إِلى والدِهِ، فَهربَ مِن نظراتِه، استأذَنَت الحاجةُ صبحية منهُ لإعدادِ الطعامِ له، لكنهُ طلبَ منها البقاءَ، توجهَ بالسؤالِ إِلى والدِهِ؛ سَألهُ عن عمهِ الحاج رضوان، وعن أمينة، لكنه لم يُجِب، وجهَ الأسئلةَ ذاتَها إِلى والدتهِ، لكنها لم تُجب أيضًا، خيَّم الصمتُ فوقَ رؤوسِ الجميعِ، كَأن على رؤوسِهم الطير، أدرَكَ أن هناكَ مُصيبةً كُبرى قَد حدَثَت، بَدأ يفقدُ صوابَهُ، وعلا صوتُه شيئًا فشيئًا، حاوَلت الحاجةُ صبحية أَن تُهدئَ من روعهِ، لم يهدأ، أَخذَ يصرخُ بشكلٍ هستيري:

- أينَ أمينة؟ أريدُ أن أرَى أَمينة!

تقَدمَت الحاجة صبحية، اقتربت منه وبَدَأت تروي لهُ ما حدَث:

- اسمَع يا وَلدي؛ أَنتَ رجلٌ، ويجبُ أَن تتصرفَ بحكمةٍ، ويجبُ أن تعلمَ أن كل شيءٍ قسمَةٌ ونصيبٌ في هذِه الدنيَا، بعدَ ستة أشهُرٍ من سفرِك؛ بدَأ عم أمينة (سالم) يُحرضُ أخاهُ على فسخِ الخطبةِ؛ خوفًا من تَقدمِ أَمينة في السن، فلا تجد مَن يتَزوجُها في المُستقبل، راحَ يبثُّ في رأسِ أخيهِ أنكَ لن تعودَ، وأن مسألةَ زواجِك من أمينة أصبحَت من الماضي، خاصةً بعدما علِموا أنكَ أصبحت تعملُ في شركةٍ مهمةٍ عندَ رجلِ أعمالٍ كبيرٍ، حاولَ الحاج رضوان التملصَ

من أَخيهِ، لَكن الأخيرَ استَمرَّ في الإلحاحِ عليهِ، ثُم أُصيبَ بسكتةٍ دماغيةٍ خفيفةٍ أقعدَتهُ في البيتِ.

لَم يُصدقْ جميل ما تَسمعُه أُذناهُ، لَم يُصدق أَن كُل هذهِ الصواعِق تنهالُ فوقَ رأسَه!

– ماذا حدث؟ تابعي يا عَمتي أرجوكِ!

– قبلَ ما يُقاربُ الشهرَ؛ حضرَ إلينا الحاج سالِم، وأَعادَ لنا محابسَ الخطوبَةِ، أَخبرَنا أنهُ فسَخَ الخطبَةَ، وأَن أمينة سوفَ تتزوجُ ابنَ المُختارِ، عَلِمْنا فيما بعد أنهُ أَجبرَها على الزواجِ رغمًا عنها.

– أَمينة تزوجَت؟

قاطعها جميل.

– ثُم.. ثُم..

– ثم ماذَا يا عَمتي؟ أكملي..

– لقَد هَددوهَا بالقتلِ يا بُني إِن لَم تقبَل الزواجَ بابنِ المُختار، والمسكينة لَم تحتمل، بعدَ الزواجِ بأسبوعٍ واحدٍ أُصيبَت بانهيارٍ عصبي، أَدخلَها في غيبوبَةٍ، ثُم أَسْلَمَت الروحَ إلى باريها.. ربنا يرحمها..

وقَعَ الخبرُ كالصاعقةِ فوقَ رأسِهِ، شعرَ أَن الدنيا تدورُ بهِ، سَقطَ مغشيًّا عليهِ، صرَخت أُم جميل، وكذَلك الحاجة صبحية، سَكبوا الماءَ فوقَ رأسِه، أفاق.. نظرَ إلى وجوهِهم.. إنها الحَقيقَةُ إِذن.. إنهُ لا يحلمُ.. صارَ يصرخُ ويبكي كأَنه طفلٌ صغيرٌ، يبكي بصوتٍ عالٍ

جدًّا، ينادي:

– أمينة.. أمينة..

نهضَ مِن مكانِه، دخلَ إلى غرفتِهِ، أحضرَ حقائبَ السفر، والهَدايا التي أَحضرَها لأَمينة، ألقى بها في فناءِ البيتِ، فتحَ الحقيبَة الصفراء، كانَت مليئةً بالأوراقِ النقديةِ، فيها أكثر من مائة ألف دولار، إنها (تحويشة) العمر، أشعلَ النارَ فيها، وكذلكَ في بقيةِ الحقائبِ، خلعَ قميصَه، وجلسَ شبهَ عارٍ أَمامَ النارِ، يضحكُ بشكلٍ هستيري، هرعَ الناسُ إلى منزلِ أبي جميل بعدَ أَن سَمعوا الصراخَ والعويلَ ينبعثُ منهُ، ورَأوا سُحُبَ الدخانِ تشُق سماءَ العاشقِ المَذبوح، توقفت الحاجة صبحية عن الكلامِ، لا زالَت الدموعُ تنسابُ فوقَ خدهِ.

بَدَأ الطبيبُ يكتبُ تقريرَهُ الطبي:

– ابنُكم يا حاجة لا يشكو من أي مرضٍ عضوِي، لكنني أعتقدُ أن به حاجة لأن يراجعَ طبيبًا نفسِيًّا.

بعدَ أيـام؛ أُرسِـلَ جميل النحاس لقضاء إجـازةِ الصيفِ في مُستشفى الأمـراضِ العقليةِ، بعد عامٍ خرجَ الأستاذ جميل من المستشفى، اشترى جهازَ تسجيلٍ (ستيريو)، وأُغنية وحيدَة لعبد الحليم حافظ (قارِئة الفنجان).

يذهبُ إلى مدرَسة البناتِ، يُرافقُهن منذ الصباح حتى انتهاء الدوامِ الرسمِي، ينتظرهن، ويعودُ معهن إلى بيتِه.

هكذا ظلَّ حالُ الأستاذ جميل منذ عشرين عامًا حتى اللحظَة، تسأَله إِحدى الطالبات المُشَاكِسات بمكرٍ أُنثَى عن سببِ وقوفِه أمامَ بابِ المدرَسةِ من الصباحِ وحتى المساء، يُجيبُها:

- أبحثُ عن عَروس.

- أَلم تجدْ حتى الآن؟!

يجيبُها:

- الجيلُ الذي يَأتي أَجملُ من سابقه.

الحَبيبُ المُنتَظر

تتمنى أن تعرفَ ما هَذا الشَّيء الذي يُسَمونَه حُبًّا، هل لهُ شَكلٌ أو لَونٌ! أو رُبما يُصدِر رائحةً زكيةً، تستمعُ بشغفٍ كبيرٍ لصَديقاتِها وهُنّ يَصِفنَ لهَا حلاوةَ الحُبِّ، طعمَ الحُبِّ، وتتوقُ لأَن تخوضَ تجرِبَةَ حُب كأيِّ فتاةٍ من بناتِ جيلِها، لا شَيءَ ينقُصُها، جسدُها المَرمريُّ الذي تفتحَ منذ زمنٍ يفيضُ بالأنوثةِ، تقفُ أمامَ المِرآةِ، تَتحسسُ خدَّيها الحَريريين، تتفحصُ وجنتَيها اللتين اكتسبَتَا حمرةَ التُّفاحِ، تمرُّ بإبهامِها على شفتَيها الكرزيةِ الممتلئةِ بالشهوةِ والإغراءِ، تَتحسسُ جِيدَها العاجيَّ الشفافَ كالمرآة بلمسةٍ سريعةٍ مِن أصابعِ كفِّها الناعمَةِ الرقيقَةِ، تخلعُ شالَها البنفسجِيَّ عن رأْسِها، فتَنسَاب شَلالاتُ الضفائرِ الغَجريَّة الفاحِمَة إلى أسفَل ظهرِها، تُمسكُ بِرُمَّانِ صدرِها بِكَفيها كِلتَيهِما، فتكتَشِف جيولوجيا الأنوثةِ الطاغية، وحممَ البركانِ الثائرة، تستديرُ يَمينًا ويسارًا فتَجِد خَصرَها منحوتًا مِن الرخَامِ، اكتسَت الشجرةُ بالخضرَةِ، ونضَجَت الثمارُ منذُ زمنٍ، وتنتظرُ مَن يقطفُها.

– لماذا إذن لا ينتبهُ لحُضوري أحدٌ؟!

تسألُ نفسَها، رُبما لأنها اجتازَت سنواتِ العِشرين من عمرِها؟! أو ربما لأنَّهَا لم تُكمل دراستَها الجامعيةِ، على الرغمِ من تحصيلِها الممتازِ في الثانويةِ العامةِ؛ اختارت العملَ في حياكةِ الملابسِ والاعتناءَ بوالدتِها العجوزِ المقعدة، لكنَّها أُنثى ترغب أن تُحِب وأَن تُحَب، تتمنى لو يعاكسُها شابٌّ، لو يكتبُ لها رسالةَ حُبٍّ، لو يُلَوِّحُ لها بكفهِ وهي تنشرُ الغَسيلَ على سطحِ المنزل، هي على قناعةٍ أن هُناك مَن ينتظِرُها ليغمرَها بحُبِّه وحنانِه، يحتَويها بينَ ذراعَيهِ، يهبَها السماءَ والغيومَ والمطرَ، ويَقطفَ ثمارَها التي نضجَت منذُ زمنٍ، لكن كيفَ ستجدُه هيَ إنْ لم يجدْها هوَ؟!

أَخَذَتْ تُفكرُ في طريقةٍ ما، حتى اهتدَت، قررَت أن تُقلدَ بطلَ إحْدى الرواياتِ التي قرأتها مُؤخرًا، حيث كان البطلُ يكتبُ رسائلَ الحبِّ لحبيبةٍ مجهولةٍ في الطرفِ الآخر من هذا العالم، يضعُها في زجاجةٍ فارغةٍ، ثم يُلقي بها في البحرِ لتتقاذفَها الأمواجُ إلى جهاتٍ مختلفةٍ، حيثُ المَد والجزر يدورُ، وذات يوم؛ بينما كانَ البطلُ العاشقُ يهم بإلقاءِ رسالةٍ أُخرى؛ إذْ بهِ يلتقطُ رسالةً قادمةً من الطرفِ الآخر لهذا البحرِ المُمتد، والمُترامي الأمواج والأوجَاع، وإذ بها رسالةٌ من صبيةٍ تردُّ على رسالةٍ له التقطَتها من أحدِ الشواطئِ البعيدةِ، أَبدَت رغبتَها في رؤيتِه ولقائِه، ووَضعَت عنوانَها الكاملَ في نهايةِ الرسالةِ، بعد أيامٍ؛ كانَ البطلُ العاشقُ يطرقُ بابَها، سحرَتها سمرتُه، وسَحرَتهُ

عيونُها الزرقاءُ وشعرُها الذهبِي، أحبَّها وأحبَّتْه، قررا الزواجَ والإقامةَ في (فالنسيا)، مدينةِ الشاطئِ الذي شهدَ ولادةَ حُبهِما.

قررَت أن تَستخدمَ الأسلوبَ ذاتَه في البحثِ عن حبيبِها المنتظَرِ في الطرفِ الآخر، لكن دونَ بحرٍ، لقَد قررَت أن تكتبَ رسائلَها وتضعَها في مغلّفٍ في البريدِ، وترسِلَها إلى عناوين مختلفةٍ في العاصمَة، كان يحتمُ عليها الوصولُ إلى وسطِ المدينة؛ لإرسالِ مكاتيبِها حيث مركز البريد، لكنها لا تستطيعُ مغادرةَ المنزلِ؛ بسببِ رعايتِها لوالدتِها؛ فهي التي تطعمُها وتسقِيها وتعطِيها الدواءَ في الموعد، ولا أحدَ بإمكانِه القيامَ بدورِها، تغلَّبَت على هذه المعضلةِ أيضًا، ووجدَت حلّها، فَقررَت أن تُرسلَ رسائلَها مع الأستاذِ (قاسم أمين)؛ الذي استأجرَ الطابقَ الثاني لمنزلِها، حيث يعملُ في وزارةِ الثقافةِ وسطَ المدينة، يمكنُها الوثوقُ به، فقَد جرَّبَتهُ قبلَ ذلك، ولم يرفضْ لها طلبًا أو يتذمَّر، كانَت توصيهِ أن يُحضر إليها بعضَ الرواياتِ والقصصِ الغَراميةِ، يوافقُ برحابةِ صدرٍ، يذهبُ إلى المكتبةِ المجاورةِ للوزارة، يشتري لها رواياتٍ بكامل المبلغِ الذي تَسلَّمه منها في الصباحِ الباكر، وفي المساء يسلمُها الكتبَ وفاتورةَ المكتبة، ويُذَكرها ألّا تتردَّد في طلبِ أي خدمةٍ، فهو لن يتأخرَ.

منذُ شهرين؛ حضرَ الأستاذُ قاسم للعملِ في العاصمةِ، وبما أنهُ لا يستطيعُ استئجارَ منزلٍ وسط المدينةِ؛ نتيجةَ الغلاءِ الفاحشِ

الذي طالَ العقاراتِ؛ قررَ أن يستأجرَ في ضواحي المدينة، قادهُ أحدُ معارفِه إلى منزلِ الحاج (أحمد العوض)، الذي تُوفِّي منذ سنواتٍ، وتركَ خلفَه زوجةً مريضةً مقعدةً، وصبيةً يافعةً أخذَتْ على عاتقِها رعايةَ والدتِها، وإدارةَ شؤونِ البيتِ.

استقبلَته (وردة) بوجهٍ بشوشٍ، عرضَت عليه الطابقَ الثاني من المَنزلِ، المكون من غرفتين ومنافعِها؛ نظرًا لأنه يتمتع بمدخلٍ ومخرجٍ مُستقلين؛ ليكونَ حُرًّا في حركتِه وتحركاتِه، الأستاذُ قاسم شابٌّ فارعُ الطولِ، أسمرُ البشرةِ، في منتصفِ الثلاثينياتِ من عمرِه، تسريحةُ شعرِه الجانبيةُ تزيدُه بهاءً وَوقارًا، خلوقٌ جدًّا ومثقفٌ، تخرَّجَ في كليةِ الفنونِ الجميلة، انتظرَ سنواتٍ حتى حظِيَ بوظيفتِه الحاليةِ دون وساطةٍ ومحسوبياتٍ، بجدارتِه واجتهادِه، لم يتزوَّج حتى اللحظَة؛ لظروفِه الماديةِ الصعبةِ، كانَ يعملُ في المُحافظاتِ الشماليةِ، وأخيرًا تم نقلُه للعملِ في المقرِّ الرئيسِ للوزارةِ في العاصمة.

في ساعاتِ المساءِ الأُولى؛ طرقَت (وردة) بابَ الأستاذِ قاسم، استقبلَها بابتسامتِه المعتادةِ، طلبَت منه أن يسدِي لها خدمةً، أخبرتهُ أنها تريدُ إرسالَ بعضِ الرسائلِ لأقاربِها في الأرْيافِ، وتريدُ منهُ أن يضَعَ لها رسائلَ في بريدِ العاصمةِ؛ لأنها لا تستطيعُ مغادرةَ المنزلِ؛ بسبب ظروفِ والدتِها، وطلبَت منهُ أن يكتبَ عنوانَه في الوزارةِ مكانَ المرسل؛ لأنهُ - كما يعلمُ - لا يوجدُ رمزٌ بريديٌّ لها، وبالتالي

سيُحضرُ لها الردَّ الذي سيكونُ هو أولَ مَن يَتلقاهُ، وافقَ الأستاذُ قاسم، سلمَتْهُ ثلاثَ رسائل، شكرتْهُ، وغادرَتْ إلى غرفتِها.

مَرَّت ثلاثةُ أسابيع، لم يأتِ الأستاذُ قاسم بخبرٍ، صعدت إلى غرفتِه، وسألَته إن كانَ قد وصلَ ردٌّ على رسائلِها، اعتذَر لها الأستاذُ قاسم.

- لم يصلْ شيءٌ.

ابتسمَت، شكرتْهُ وهمَّت بالمغادرةِ، خَطتْ أمتارًا عديدةً للأمامِ، ثم عادَتْ إليهِ، سألته بصوتٍ حزينٍ ونَظراتٍ متعبةٍ إنْ كانَ بإمكانِها أن تبعثَ رسائلَ جديدةً.

- بِكُلِّ تأكيدٍ، على الرحبِ والسعة في أيِّ وقتٍ.

أجابَها الأستاذُ قاسم. سلَّمَته ثلاثَ رسائل أخرى وَغادرَت، بعد أسابيع؛ تكرَّرَ الموقفُ والمشهدُ، صعدَت إلى غرفتِه، سـألَته إنْ جاءَه ردٌّ، اعتذَرَ لها ثانيةً، شعرَ الأستاذ قاسم أنّ هناك خطبًا ما.

ذاتَ يومٍ؛ بعد أن سلمتْهُ رسائلَ جديدةً ليضعَها في البريدِ، خرجَ قبل ساعةٍ من نهايةِ دوامِه متوجهًا لمكتبِ البريد، سلَّمَ الرسائلَ لموظفِ البريد، وضعَ الطوابعَ، ثم الأختامَ، وأدارَ ظهرَه مغادِرًا، لكنَّ موظفَ البريدِ ناداهُ:

- يا أستاذ، يا أستاذ.

استدارَ الأستاذُ قاسم نحو الصوتِ.

– نعم؛ أخاطبُكَ أنت.

قالَ المُوظف.

– هل من خدمةٍ، هل هناكَ خطأ ما؟

سألَه الأستاذُ قاسم. أخرجَ الموظفُ كومةَ رسائل، وضعَها أمامَ الأستاذ قاسم، ثم قالَ:

– يا أستاذ، منذ أشهرٍ وأنتَ تأتي إلى هُنا، تضعُ الرسائلَ وتذهبُ، وبعد أسبوعٍ تعودُ الرسائلُ لي مُجددًا؛ لأن العناوينَ الموجودةَ على الظَّرفِ ليسَ لها وجودٌ! ولا أصحابَ لها! هي عناوينُ وهميةٌ يا أُستاذ! تفضلْ، هذه رسائلُكَ، تأكدْ من العنوانِ قبلَ أن تُرسلَ أيَّ شَيءٍ.

شعرَ الأستاذُ قاسم أن هناكَ أمرًا غير طبيعيٍّ يحدثُ، فهل يمكنُ أن تكونَ (وردة) تتسلَّى به فقط؟! هل يمكنُ أن تلعَبَ به، وتَستَغفلَه لأمرٍ ما يجهلُه هو؟! لكنه يعرفُ الإجابةَ:

– هي أبسطُ من هذا بكثيرٍ، لا يَبدو عليهَا أنها فتاةٌ لعوبٌ، هل من الممكنِ أن تكونَ مريضةً نفسيًّا أو بَلهاء؟ لا، لا يمكنُ ذلك، حبُّها للثقافةِ والأدبِ والقراءةِ لا يوحي بذلك، هناك شيءٌ غير طبيعيٍّ لا بُدَّ أن أعرِفَه.

عادَ الأستاذُ قاسم إلى مكتبِه، جلسَ حائرًا، مئاتُ الأسئلةِ تدورُ في رأسِه، لكنهُ ترددَ فيما عزمَ عليهِ.

– هذه ليسَتْ أخلاقِي، لم أنشَأْ على انتهاكِ خصوصيةِ الآخَرين.

لكن الفضولَ والخوفَ والحيرةَ كانوا أكبرَ من هواجسِه، فتح الرسالةَ الأولى وقرأَها، فوجِئَ بما قرأ، لم يتوقعْ أن تكونَ بهذهِ الرقةِ وبهذهِ العاطفةِ، وبهذا الحزنِ والوحدةِ، أعادَ النظرَ إلى أسطرِها، قرأَ مرةً أُخرى:

- (حبيبي الغالي، ها أَنا قَد شيَّعتُ سنواتي العِشرين إلى مثوَاها الأخيرِ وأنا أنتظرُك، ولم تأتِ).

كان وقعُ كلماتِها كالرصاصِ في جسدِه.

- أين كنتُ أنا؟ كيف غابَ عَني حضورُها الأُنثوي؟ هل لأنَّها بسيطةٌ؟ وليكُن، أليسَ أفضلَ من أن تكونَ متعجرفةً؟! أم لأنها لا تحملُ شهادةً جامعيةً، وتتحدثُ ثلاثَ كلماتٍ عربية وعشرًا إنجليزية؟! الشهادةُ ليسَت معيارًا للثقافةِ على أهميتِها، أم لأنها فقيرةٌ لا تملكُ شيئًا؟ أنتَ أيضًا فقيرٌ يا قاسم، أنسيتَ أنك حَتى اللحظةِ لم تتزوجْ بسببِ الفقر! أنسيتَ أنكَ كنتَ تذهبُ إلى الجامعةِ سيرًا على الأقدامِ؛ لأنكَ لم تكُن تملكُ أجرةَ سيارة؟ إذن كيفَ لم أنتبِه لها كأنثى؟

بدأَ الأستاذُ قاسم يستحضرُ ملامحَها وتضاريسَ أنوثتِها، وهو يُرددُ:

- إنها فعلًا جميلةٌ، فاتِنةٌ، ساحرةٌ.

فتحَ الرسالةَ الثانيةَ:

- (عندما تشرقُ شمسُك ذات صباحٍ؛ سأكونُ في انتظارِك).

فتحَ الرسالةَ الثالثةَ:

- (بي حاجةٌ إلى ظِلِّك، إلى أَن أَتنسَّمَ رائحةَ تبغِكَ، فلا تُطِل الغيابَ).

فتحَ الرسالةَ الرابعةَ:

- (لَن أيأسَ، سمعتُ عن الحُب، ولن أتذوقَه إلا معكَ).

كانَت كلماتُ رسائلِها نبالًا تنغرسُ في جسدِه، تجتاحهُ عواطفُها الجياشةُ، كأمواجٍ غاضبةٍ يَلسعُه دفءُ أنفاسِها بين ثنايا الحروفِ، قررَ في النهايةِ أن يُكفِّرَ عمّا اقترفَتْ عيناه.

- إنها هيَ، هيَ التي أبحثُ عنها منذ زمنٍ بعيدٍ، ولم أنتبهْ لحضورِها.

أخرجَ ورقةً وقلمًا، وبدأ يسكبُ دمَه وقلبَه فوق أمواجِ السطور، قررَ ألا يضيِّع لحظةً واحدَةً دون عينيها، أنهَى رسالتَه، وضعَها في مغلفٍ، ودسَّها في جيبِه، غادر مكتبَه عائدًا إلى البيتِ، دخلَ غرفةَ الضيافةِ، خرجَ إِلَى الشرفةِ التي تطلُّ على فناءِ البيتِ، كانت (وردة) تجلِسُ بالقربِ من شجرةِ الليمون، تنثُرُ الحبوبَ وقطعَ الخبز اليابسِ للطيورِ والعصافير، ألقى التحيةَ عليها، ردَّت عليهِ بمثلِها، وبسمَتُها الناعِمةُ لا تفارقُ شفَتَيها، طلبَ منها أن تصعدَ عندَه، فهناكَ خبرٌ ما يريدُ إطْلاعَهَا عليهِ، تركَت كُل شيءٍ في يدِها وصعَدَت، دخلَت غرفةَ الضيوفِ، خيّمَ الصمتُ في المكانِ، يحاولُ أن يُخرجَ الكلماتِ؛

إلا أنه ارتبكَ قليلًا، قطعَت صمتَه بسؤالٍ:

– خيرًا إن شاءَ اللهُ يا أُسْتاذ قاسم، أَرجو أَلا تَكون وجدتَ منا ما أساءَكَ.

– لا لا، أستغفرُ الله، لكن أردتُ إخبارَكِ بأمرٍ يخصُّكِ أنتِ، في الحقيقةِ.. في الحقيقةِ..

– تحدَّثْ يا أُستاذ قاسم، لا تَخجَلْ، أنا أستمعُ إليكَ.

بلعَ الأستاذُ قاسم لعابَه، استجمَعَ شجاعَتَه ثم قالَ بثقةٍ وتأنٍّ:

– في الحقيقةِ، لقد جاءكِ ردٌّ عَلى رسائلِكِ.

تجمَّدَت في مكانِها، تعثَّرت الكلماتُ بين شفتَيها، تريدُ أن تقولَ شيئًا لكِنها لم تستَطِع، لكن دمعتَين انسابَتا من عينَيها، كحباتِ لؤلؤٍ انزلقَت فوقَ خَديها حتى عانقَت أعلى ترائبِها، أخرَجَ الأستاذُ قاسم الرسالةَ، بسطَ كفهُ واضعًا المغلفَ في مواجهةِ عينيها، لم تستطِع أن تلتقطَه، طلبَت من الأستاذ قاسم أَن يقرَأَ لها فَحوى الخطابِ؛ لأن يديها لم تعُودا ملكًا لها، فتحَ الأستاذ قاسم الظرفَ، أخرجَ المكتوبَ، وبدأَ يقرأُ:

– (وردتي) الجميلة، لَكَم سرّني أن أتلقى خطاباتِك الرائعةَ، فبالقدرِ الذي كُنتِ تبحثين عني كنتُ أنتظركِ كل صباحٍ ومساء على قارِعةِ أحلامي، أنتظرُ هبوبَ رياحِ عطركِ صوبَ أيامي الجافةِ والمتصحرةِ، أنا أيضًا سمعتُ عن الحبّ، وأريدُ أن أعيشَهُ معك، أنا

أيضًا بي حاجةٌ لأتنسَّم عبيرَكِ الساحرَ، وشذاكِ المُسْكِرَ، أرجوكِ اعذريني؛ لأنني كنتُ أَعمى، إِذْ لَمْ أُبصِرْ أنوثتَكِ الفاتنةَ وهي تعترضُ طريقي كلَّ لحظةٍ، حبيبتي وردة..

– انتظِر انتظِر.

قاطعَتْه (وردَة):

– مِن أين يعرفُ صاحبُ الرسالةِ اسمِي؟ أنا لم أكُن أُوقِّع باسمي في أسفَل رَسائِلي.

نَظرَت وردة إِلى عينيهِ، اقتربَت منهُ، ثم نظرَت إلى الأسفَل، لم يكن ينقصُها الذكاءُ لتعرف أنه هو كاتبُ الرسالةِ.

– هذا أنت يا أستاذ قاسم، قرأتَ رسائلي وتريدُ مجاملَتي.

– إياكِ أن تظُني هكذا يا وَردة، أقسمُ إِنني لا أجاملُكِ، نعم هذا أَنا، أَنا الذي يبحثُ عنكِ منذ سِنين، لكِنني كنتُ أعمى، أنا أُحبكِ يا وَردة، أرجوكِ وافِقي على الزواجِ مِني، أرجوكِ..

– لكن..

– لا أريدُ لكن يا وردة..

مَدَّ يده إلى خدِّها، رفعَ رأسَها لتكونَ عيناها في مواجهةِ عينيهِ، ثم احتضَنَها بشدةٍ حَتى كادَت يداهُ تكسران أضلاعَها، هي أيضًا احتوَتهُ بِكِلتا ذراعَيها، تحسَّسَت كل نقطةٍ في جسدِه؛ تريد أن تتأكدَ أنها لا تحلمُ، وأنها ليست في حلمٍ جميلٍ.

فهرس الموضوعات

التقديم – حولَ قصصِ العرسِ الأبيَض 5
المواجَهةُ الأُولى مع الموتِ 9
القَميص الأَزرق 14
أعراسُ الدَّم 20
ذَاكِرَة جرحٍ 24
الهروبُ من الموتِ إلى الموتِ 37
عندما تَبكي الجبالُ 43
العرسُ الأَبيَض 49
الروحُ الغَائِبَة 59
حَقٌّ تاريخِيٌّ 63
الحُبُّ المَمنُوع 71
المَوتُ الأَحمَر 87
اغتِيالُ القَمَر 92

طوقُ الْكَرَامَةِ 115
ليلَةُ القَبضِ على سَعيد عطَا الله 120
اللقاء الأَوَّل والأخير 124
الفِلَسطِيني الأَخير 142
العُمرُ الجَديد 148
ومِـن الحُبِّ ما يُودي بـصَاحـبِـهِ إلى مستـشـفى الأمـراضِ
العَقليَّة 152
الحَبيبُ المُنتَظر 164